المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثاني - العدد السادس عشر
تأريخ الإصدار: فبراير 2021 م

إبدالات الحوار (الصوغ والتخييل في رواية "قالت ضحى" لبهاء طاهر)

Dialogue substitions (Furmulation and imagination in the navel "Qalat duha")

الدكتور/ رشيد طلال

أستاذ التعليم العالي المساعد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان، المملكة المغربية

Rachidtalal51@yahoo.fr

ملخص البحث:

يعد الحوار من الدعائم الصيغية الأساسية التي ترتكز عليها بنية الخطاب الروائي، إذ يساهم في إثراء مقاصد عملية "التدلال"، وذلك من خلال الأشكال الوظيفية العديدة التي تتحقق عبر مادة الحوار، فهو ليس إمكانية وحيدة البعد هدفها فقط إضفاء الطابع الدرامي على الخطاب الروائي، بل هو إمكانية مرنة وخصبة وفعالة، يسمح اشتغالها بترسيب خصوصيات خطابية ونصية لا تخلو من أبعاد تخييلية، تتميز بدينامية حقيقية مصدرها تلك العلاقات التذاوتية التي تفيض بأشكال من الكينونات. فالحوارية تضع الروائية في مقام بين أجناسي، مفعم بروح التداخل والتفاعل مما يدفع بالروائية نحو مسارات وأفاق تخييلية واسعة ومركبة، تلقي الضوء على العوالم الداخلية، كما تكشف مدى انفراج أو توتر علاقة الذات بالأخر، وما يترتب عن كل ذلك من مفارقات غائرة تطبع واقع الرواية.

الكلمات المفتاحية: الحوار، الحوارية، الصوغ، التلفظ، المتخيل.

المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثاني - العدد السادس عشر
تأريخ الإصدار: فبراير 2021 م

Dialogue substitions (Furmulation and imagination in the navel "Qalat duha" by Bahaa Taher)

Dr. Rachid Talal

Morocco

Abstract:

The dialogue of the mainstays that underpin novelist discourse structure, and dialogue contributes to the enrichment purposes process the latter, through the many functional forms achieved through the substance of dialogue, it is not the possibility of a single dimension of goal only to dramatize to the speech the novelist It is impossible to flexible and fertile and the possibility of an effective, functioning allows depositing the ins and rhetorical text, characterized by dynamic real source of those relations and interactive between the various characters. Overflowing with forms of entities. The dialogue puts the novelist in a place between my two kinds, full of a spirit of interaction, which pushes the novelist towards broad and complex imaginative paths and horizons, sheds light on the inner worlds, and reveals the extent of the détente or tension of the relationship of the self with the other, and the consequent paradoxes that characterize the reality of the novel.

Keywords: Dialogue**,** Furmulation, Enoncaition, imagination.

مشكلة البحث

تراهن هذه الدراسة بشكل عام على معالجة مشكلة مركزية تتعلق بتوظيف آليات تحليلية وقرائية في استقصاء دلالات العمل الروائي، كما تسعى على نحو خاص إلى ملاحقة كيفية اشتغال المكون الحواري في رواية "قالت ضحى" لبهاء طاهر.

أسئلة الدراسة:

استأنست الدراسة بالأسئلة الآتية:

- إلى أي حد تساهم آليات الصوغ والتخييل في بناء اقتصادية عالم روائي محكم ومنسجم الدلالات والأبعاد؟
- هل ثمة روابط جامعة بين الاشتغال الصيغي والخصوصيات الخطابية والنصية؟
- كيف يشيد مكون الحوار أرحام الصوغ والتخييل في رواية "قالت ضحى" لبهاء طاهر؟

أهداف الدراسة:

تتوخى الدراسة الكشف عن الأدوار المركزية للمكون الحواري، بالنظر في إبدالاته من حيث الصوغ والتخييل لنقف منه عند طبيعة العوالم الروائية في "قالت ضحى" لبهاء طاهر، ولندرك في الآن ذاته الخصوصية الحوارية التي شيدت العناقيد التخييلية والمرامي الأطروحية.

أهمية الدراسة:

- الأهمية العلمية: تتمثل الأهمية العلمية في اختبار المقاربات والمناهج التحليلية على الأعمال الروائية في السردية العربية الحديثة.
- الأهمية العملية: وتكمن الأهمية العملية في البعد الإجرائي والتطبيقي الذي ينأى بالدراسة عن منحى الادعاء النظري.

مصطلحات الدراسة:

الصيغ الخطابية - التلفظ - تحليل الخطاب - النصية - الحوار - الحوارية - التخييل - علاقات القوة والموقع - التعاقد الحواري - إكراهات الكتابي - مواضعات الشفهي - المقصدية - قوة العبارة - تداولية الحوار - الأطروحة الروائية.

الإطار النظري والمعرفي للدراسة:

اعتمدت الدراسة على الأطر النظرية التي بلورتها الدراسات السردية، وذلك في ظل الاهتمام البنيوي والشعري المتفاعلين معرفيا مع الانجازات المحققة في مجالات لسانيات النص ونظرية التلفظ وتحليل الخطاب، وقد وفقنا بينها وبين الاجتهادات التداولية في إعمال منهجي يقوم على تكامل المعارف وتعدد الاختصاصات العلمية.

مقدمة:

إن تناول الجوانب الصيغية في الخطاب الروائي يمس مفصلا أساسيا يسعفنا في ملاحقة مختلف الإبدالات التي توظف في انتظام العالم المسرود وتوجيهه؛ فهي تحكم اقتصاديته بوصفها تشكل إمكانات خطابية وسردية. ولذلك تبقى مقاربة الاشتغال الصيغي رهانا على استجلاء خصوصيات الكتابة الروائية في البناء والدلالة والتخييل، وهذا في ظل ما تعرفه صنعة هذه الكتابة اليوم في العالم العربي من تحولات كبرى؛ حققت عبورا من قوالب ورؤى تقليدية نحو أخرى حررت ذاتيتها من غشاوة مطابقاتها لذاتها، وأخذت تنزع بها نحو مناطات أكثر تفاعلا مع غيريتها وآخرها، ولهذا سخرت الكتابة الروائية إمكانات وطرائق عملت على تجريبها في الإمساك بقضايا شديدة التعقيد والتركيب طبعت واقعها، ومن ثم تمكنت من تشييد عوالم مفعمة بمظاهر الحدة والتوتر والقلق، وهذا يؤكد انخراطها في حساسية ترفض الجمود والتكلس؛ بما بات في حوزتها من مناعة أجناسية قادرة على مسايرة واقع متسارع الإيقاع يسمه التبدل والتفسخ؛ وتلاحقه لعنة المسخ موسعة رحابة ابتدالاته، وهو ما ألقى بظلال الخسائر المهولة على أطروحة الرواية، وكأن الكتابة الروائية منذورة لمصير تراجيدي آهل بالتهاوي والتبدد. نسعى في ذات السياق إلى مقاربة رواية "قالت ضحى" لبهاء طاهر، وذلك من زاوية مركبها الحواري؛ ووفق إبدالاته قصد ملامسة طيات الكتابة في صوغ الدلالات الكبرى لهذه الرواية.

- أولا: في التقريب النظري.

تظل الرواية من الأجناس الأدبية الأكثر إلحاحا في اقتناص تنوع الأصوات والخطابات واللغات، الأمر الذي يستدعي في تشكلها وانتظامها الالتفات إلى قضاياها التلفظية؛ التي تنهض على صرح التذاوت، حيث يتخلق حيز دينامي من صور التفاعل والتبادل بين المحافل التلفظية، ولذلك تقودنا الرواية إلى تشخيص متفرد للغات يعكس المواقف في توافقها وتباينها، فكان من ثم للخطاب الروائي شرطه الخاص في التواصل الأدبي، إذ تحضر إلى جانب عناصر الملفوظ، أي الكلام الروائي، عناصر أخرى مرتبطة بترهينات التلفظ، وبهذا تؤلف الرواية بين الذوات واللغات. ويقتضي التلفظ في نظر "إ.بنفنيست" "تحويلا فرديا للغة إلى خطاب"[1]، ومن هذا المنطلق عرف الخطاب بالمعنى الواسع بما "يقتضيه كل تلفظ من متكلم ومستمع وعند الأول غاية التأثير في الثاني بطريقة ما"[2].

تتضمن الترسيمة العامة للتلفظ مجموعة ميكانيزمات تسمح بتحويل اللغة - النسق إلى خطاب: "إن وصف اشتغال اللغة يفترض دراسة هذا التشغيل (Mise en exercice)، الذي يجعل وحدة إنتاج الملفوظات أمرا ممكنا، ويسمح بتحويل اللغة إلى خطاب من قبل المتلفظ"[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن استعمال لفظة خطاب في نظرية التلفظ لا يتم من أجل تعيين وحدة لسانية مجاوزة للجملة، أو حتى من أجل دراسة الملفوظات ضمن شروط إنتاجها السوسيوتاريخية (منظور تحليل الخطاب)،

[1] - Benveniste. E : Problème de linguistique général, Ed. Gallimard, TI, 1966, et T2, 1974 , P : 81.
[2] - Ibid : T1, P : 242.
[3] - D. Mangueneau.: Approche de l'énonciation en linguistique française, Ed. Hachette, 1981, P : 6.

بل "قصد ربط الملفوظ بفعل التلفظ الذي يسنده"[4]. ويفرض التلفظ في الرواية تقريبا لوجهاته في مجال السرديات، ونسوق تماشيا مع ذلك تعريفا ل"م. بال" تحدد فيه وظيفة السرديات يسعى إلى "تشكيل نظريات للعلاقات بين النص السردي والمحكي والقصة"[5]؛ وقد يلمس المتتبع لمسار نظرية السرد أن دراسة العلاقات بين النص والمحكي والسرد لم يعد يشكل مركز اهتمام، ويرجع ذلك إلى التطور الذي شهده تحليل الخطاب السردي؛ إنه ما فتئ يتعدى حدود التحليل البنيوي للمحكي لينشغل بشعرية المحكي، وقد ترتب عن هذا الانشغال ظهور تحديدات بديلة شكلت أساسا نظريا آخر مغايرا، إذ لم يعد النص مجرد توليفة مستقلة ومنتظمة من الأدلة الخالصة، بل صار ملفوظا تواصليا؛ وهو أيضا "تسريدا للتلفظ" تربطه علاقات مع ما هو سياقي.

كما أن البحث عن العناصر السياقية والمرجعية اقتضى أن لا نهتم فقط بالعلاقة التي تربط الذات بملفوظها الخاص، بل أيضا بوضعها إزاء العالم الخارجي، وإزاء نصوص أخرى، فعوض تقليص النص إلى ترسيمة أولية وإلى نظام ثابت - تقريبا- من الأدلة، تم التوقف-عكس ذلك- عند خصوصيته وتفرده إزاء متون أخرى مماثلة، وإمكانات تمفصلية أخرى[6]. كما اتجهت بعض الدراسات حول الخطاب السردي إلى اقتراح "شعرية جديدة للخطاب"، أو "أسلوبية للحوار"[7]. كما برزت محاولات سعت إلى التفكير في المحكي بصورة مغايرة، رابطة إياه بالتجربة التي تثوي خلف التمفصلات المنطقية[8]. وبموازاة ذلك تمت العودة أيضا إلى التقليد البلاغي الذي اعتنى بمفاهيم تخص الاستعمال والأهداف والآثار، أو الواقع من خلال دراسته لـ "الإبداع" (Invention) و"القول" (Elocution)[9]. ينضاف لما سقناه الاهتمام البالغ الذي وجه لفعل القراءة (L'acte de lecture) وللعلاقة التي توجد بين هذا الفعل وفعل الكتابة،

وقد أسفر الانشغال بقضايا التلقي والإنتاج الأدبي في "فرنسا" عن ميلاد دراسات اهتمت بالتفاعل النصي (L'intertextualité)[10]. وأخرى نمذجية (Typologique) تولدت بكيفية مباشرة عن الأبحاث التي أنجزتها السرديات[11].

وحاولت بعض الدراسات اختراق حدود التحليل الشكلي، آخذة بعين الاعتبار الروابط الحوارية، والمستويات الخطابية، والتداخلات النصية[12].

ولقد صارت مقولة التلفظ مركزية في دراسات سردية عديدة هامة: لقد استند "ج.لينتفلت"[13]. بصورة أساسية على مفهوم الترهين السردي (L'instance narrative) ليشيد نمذجته السردية، ودرس "هـ. فاينريش"[14].

---

[4] -Ibid : P : 6.

[5] - M.C. BAL: Narratologie, Ed Hespublichers, 1984, P : 5.

[6] - P.V. Den Heuvel,: Parole, Mot, Silence, Ed. José Corti, 1985, P. 35-36.

[7]- تندرج هنا بوجه خاص الأعمال التي قام بها "س. شيرمان" (C. Cherman) (1976) حول "ديدرو" و"أ.س. نيمان" (A.S, Newman) (1976) حول "نتالي. ساروت" و"أ. لازاريديس" (A. Lazaridés) (1978) حول "ب. فاليري".

[8]- يمكن أن يؤطر في هذا الاتجاه "Temps et récit" ل "ب. ويكور"، الذي يعد من أبرز الممثلين "للهيرمونوتيقا"، اهتم بقضايا تنتمي لمجال السرديات.

[9]- يمثل هذا المنحى "إ. إيكو"، "ي. لوتمان"، "م. ريفاتير"، "ك، فاركا"، ز"ش. بيريلمان".

[10]- خاصة مع "لـ. داليمباش" (1977)، "أ. كونبانيون" (1979)، "ت. تودوروف" (1979)، "ج. جنيت" (1976-1982).

[11]- نذكر في هذا السياق ما قام به "أ. موسرا" (U. Musarra) (1981)، و"ج. لينتفلت". (J. Lentvelt) (1981).

[12] - P.V. Den Heuvel,: Parole, Mot, Silence, Ed. José Corti, 1985, P. 36.

المكون الزمني من منظور تلفظي، إذ اعتبر الأزمنة الفعلية قادرة على إخبارنا بوضعية تواصلية متوترة في حالة النص التعليقي (Texte Commenté)، ومنفرجة في حالة النص المحكي (Texte Raconté). كما حاولت "د. كوهن"[15] دراسة مختلف ميكانيزمات تشخيص الحياة الداخلية لدى الشخصيات الروائية، وذلك بارتكازها على مفهوم وجهة النظر، وتتبين القيمة التلفظية في نظرية "جنيت" السردية[16]، من خلال مفهوم الصوت (La voix)، أي ذلك الترهين المنتج للخطاب المحكي. ولعل الإشكال الذي تطرحه مقولة الصوت هو هل ينبغي حصر مجاله في البحث عن الآثار التي يخلفها في الخطاب المحكي وفي محدداته داخل "الجهاز الشكلي للتلفظ"، وذلك بتعيين الضمائر والأزمنة، التي تسعفنا في تمييز سرد "متباين حكائي" (Hétérodiegétique) عن سرد "متماثل حكائي" (Homodiegétique)، أم ينبغي توسيع مفهوم الصوت ليشمل مختلف الميكانيزمات السردية (مكوني الزمن والصيغة) التي تكشف عن هذا الترهين داخل السرد[17].

حدد "جنيت" مجال الصوت باعتباره مجال العلاقة بين المحكي والسرد من جهة، والمحكي والقصة من جهة ثانية. ويتميز الترهين السردي بعدم تشابهه وثباته في مجرى العمل السردي، لذلك يتعين علينا أثناء التحليل إدراك إبدالاته ضمن وضعية سردية (Situation narrative) مركبة، حتى يتسنى لنا أن نميز داخل شبكة من العلاقات بين الفعل السردي وشخصياته، وتحـــديداته الزمنية، وأيضا عـلاقته مـع وضعيات سردية أخرى مقدمة في نفس المحكي[18].

وثمة إمكانية لمقاربة الخطاب المحكي عبر تحديد الأصوات السردية (الترهينات- الذوات المتلفظة) التي تشرط دلالة الملفوظ السردي (فالقيمة الدلالية للسرد مشروطة بالمنظور الذي يمنحه لها الصوت السردي)،

وعبر تحديد علاقاتها المختلفة، ويبدو أنه بات ضروريا إدماج مختلف المكونات السردية ضمن منظور أعم هو منظور التلفظ.

أكدت "ك. أوريكشيوني" أن كل تحليل للخطاب "يجب أن يبدأ بتحديد ما يسمى "بالجهاز الشكلي لتلفظ"، بمعنى الوضع الداخل ـ نصي لمختلف الفاعلين في التلفظ"[19]، وينبغي داخل هذا الإطار ألا نقصي السياق التواصلي، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالتواصل المكتوب والنصي، فالملفوظ الأدبي في حالة الخطاب السردي هو نمط خاص يقوم على ذات تخييلية (السارد) تؤدي أدوارها في وضعية متخيلة، وتحرك فيها اللغة بطريقة غير مباشرة، إنها الوسيط بين المؤلف وقرائه[20].

---

[13] - J. Lentvelt: Essais de Typologie narrative, Ed. José Corti, 1981.
[14] - H. Weinrich : Le temps, Ed. Seuil, 1973.
[15] - D. Cohn : La transparence Intérieure, Ed. Seuil, 1981.

[16] - G. Genette: Figures III, Discours du récit, Ed. 1972.
[17] - A.M. Alaoui : Narratologie, Ed. Okad, 1989, P.73.
[18] - G. Genette: Figures III, Discours du récit, Ed. 1972, P.227.
[19] - C.K. Orecchioni.: Enonciation de la subjective dans le langage, Ed. Armond Colin, 1980 , P.158.
[20] - P.V. Den Heuvel,: Parole, Mot, Silence, Ed. José Corti, 1985, P. 20.

ويبدو أن القيمة التواصلية للخطاب الروائي لا تقف عند حدود وضعية الذات المتكلمة (أو المخاطب) بل تتجاوز مركزيتها إلى وضعية المخاطب أيضا، و ذلك استجابة لما يقتضيه التبادل "التذاوتي" بين المتحاورين، أو بين الشخصيات الروائية. إن التواصل الروائي يتم بين الذوات المتلفظة، بين ملفوظ وآخر، بين محتوى وسياقه، بين خطاب إلى حد ما موضوعي وخطاب ذاتي، بين كلمة يتلفظها صوت ونفس الكلمة يتلفظها صوت آخر، بين نص وآخر، فالتواصل الروائي على المستوى الدلالي هو حصيلة هذا الإنتاج المتعدد الأصوات، إذ تتقاطع الأصوات وتختلط أو تتعارض، فيغدو تعدد المعاني خاصية نصية[21].

وفيما يرجع لمفهوم التلفظ يتعين علينا ألا ندركه كعلاقة بين الذات والملفوظ، بل كنشاط لازم، وأن ننظر إلى المخاطب باعتباره متلفظا مشاركا ((Co- énonciateur يساهم بدوره في بلورة السياق "التذاوتي"، وداخل مجال الخطاب الروائي يكون التلفظ والتأويل دوما غير منفصلين.

وتعلن الذات عن حضورها داخل الخطاب الروائي من خلال استعمال الضمائر والمعينات الزمنية والمكانية، أي ضمن ما يسمى بوضعية التلفظ (أنا، هنا، الآن)، غير أن الكشف عن حضور الذات لا يمكن أن يقتصر على هذه الإشارات الظاهرة، التي تعود أساسا لـ"لجهاز الشكلي للتلفظ"، بل ينبغي أن يمتد إلى الكشف عنه داخل الإشارات ذات الطبيعة غير اللسانية.

ويحتل الضمني (L'implicite) موقعا هاما في اشتغال الخطاب الروائي، الذي يراوح بين قطبي القول وعدم القول (Le dit et le non dit)، كما أن العمل الروائي مشروط بحسب طبيعته بإثارة البحث عن الضمنيات، فهناك أعمال روائية تقدم نفسها على أنها رمزية ومجازية داعية بذلك قراءها إلى تعقب جوانبها الضمنية من المعنى.

ويواجهنا الضمني داخل الخطاب الأدبي عامة؛ أو في الخطاب الروائي بصفة خاصة في مستويين: يتجلى أولها في تشخيص كلام الشخصيات، وثانيها في التواصل الذي يقوم بين العمل و الذين يتلقونه[22]، ويمكننا أن نصادف الضمني داخل الرواية في خطابات السارد كما في خطاب الشخصيات على حد سواء،

وتنفتح إشكالية الضمني على القواعد التي تحكم خفية تبادل الخطابات (القواعد التي تدرسها التداولية)، إذ استنادا على هذه القواعد، وأيضا على وضعية التلفظ يستطيع المتلفظون المشاركون الإمساك بجزء هام من المضامين الضمنية.

ميزت "ك. أوريكشيوني" أثناء تحديدها للضمني بين الافتراضات الأولية (Présupposés) والمضمر (Sous-entendu)، واعتبرت الافتراضات الأولية كل الأخبار التي لم تطرح بشكل مفتوح، إلا أنها أقحمت أتوماتيكيا في تشكيل الملفوظ، وكيفما كانت خصوصية الإطار التلفظي فلا بد أن نجد تسجيلا للافتراضات الأولية داخل الملفوظ[23].

---

[21] - Ibid ,P: 20.
[22] - D. Mangueneau : Pragmatique pour le discours littéraire, Ed. Bordas, 1990, P.77.
[23] - C.K. Orecchioni.: L'implicite, Ed. Armond Colin, 1986, P :25.

وإذا كانت المطروحات (Les posés) تقدم على أنها حقيقة لدى المتلقي، فإن الافتراضات الأولية تفرض عليه بصورة مضطربة، هذا إلى جانب أنها لا تشغل نفس الوضع التلفظي الذي للمطروحات[24].

وتلعب الافتراضات الأولية دورها جوهريا في خلق الانسجام النصي (Cohésion textuel)، فلكي يتنامى النص يستند إلى معلومة مطروحة فيحولها فيما بعد إلى افتراض أولي، وبدون هذه العملية سنصبح أمام سلسلة ملفوظات بدون روابط؛ أو أمام تكرار لا نهائي للشيء ذاته؛

ومن ثم فإن الافتراضات الأولية تبقى سابقة التكوين على الملفوظ المقروء، إما لكونها طرحت في موضع سابق من النص، أو لكونها اقتراحا معترفا به مسبقا من طرف المخاطب، أو لكونها اقتراحا يفترض فيه أن يكون مقبولا كونيا[25].

اعتبرت "أوريكشيوني" المضمر شاملا لكل الأخبار التي يحتمل تحريكها بواسطة ملفوظ معين، لكن تحيينها يظل خاضعا لبعض خصوصيات السياق التلفظي[26]. لقد منحت المفاهيم الثلاثة المذكورة (الضمني، الافتراض الأولي، المضمر) قدرة إجرائية كفيلة بأن نشغلها في التحليل النصي، قصد إبراز علاقة التلفظ باللامقول.

يمكن أن نلمس أهمية الضمني في الخطاب الروائي الذي يلفه المنحى الساخر، إذ تصبح العلاقة بين المحتوى الظاهر والمحتوى الضمني للملفوظات قائمة على المفارقة والتعارض والقلب، نظرا لاختلاف المقصديات لدى الذوات المتكلمة، ومن ثم يفيدنا الضمني في استكمال حلقة الصراع والتوتر التي يحملها الخطاب الروائي.

يرتبط من جهة أخرى اللفظي الواقعي واللفظي المكتوب التخييلي بنفس المعايير، وإن كان "اللفظي النصي هو الذي يحاكي اللفظي الواقعي"[27]، فكل ما قد يبدو غير متلائم لفظيا في العالم الواقعي يستعار هنا لكي ينخرط فيما تنجزه الكتابة من تعويض وتحصيل بهدف أن تمنحه مقبوليته الخطابية والوظيفية؛ وهنا ينبغي أن نلتفت من هذه الزاوية إلى العلاقات التي يقيمها الكلام التخييلي المكتوب مع مرجعه ومع الحكاية.

وتحاول الرواية تأمين تشخيص متشاكل واقعيا من خلال نزوعها نحو إقامة عالم تخييلي أكثر انسجاما وأكثر إمكانية، يخفي كل آثار التشظي والتشتت في الوحدات اللفظية أو غير اللفظية، فثمة حضور دائم لآليات تشتغل نصيا وبنيويا كي تصل إلى تناغم ملازم لكل فعل تواصلي مرتبط بالتبادل اللفظي بين الذوات المتكلمة.

وإذا كان اللفظي يهم أساسا كل ما يحفل به النص من كلام وأفكار مصدرهما الشخصيات الروائية، فإن غير اللفظي يظل تكميليا في تداخله أو تجاوزه مع اللفظي، إنه يستجمع أفعال الشخصيات وحركاتها وأداءاتها بالإضافة إلى الديكورات المحيطة بها، وفي هذا السياق يبقى ضروريا عدم إقصاء تلك التوترات الناجمة عن علاقة الاتصال أو الانفصال بين اللفظي وغير اللفظي، وهو ما يترتب عنه وضع دينامي تستند عليه الكتابة الروائية. وقد يصبح من اللازم أيضا ألا نترك المسكوت عنه التداولي الإيديولوجي دون مسه نظرا لترسبه داخل اللفظي وغير اللفظي.

[24] - Ibid, P :32.
[25] - Ibid,P :39.
[26] - Ibid,P :39
[27] - G.L. Mercier: La parole Romanesque, Ed. Klinchsieck, 1989, P : 30.

فعادة ما تساهم شبكة الضمنيات، في تدفق الإيهام الواقعي، هذه الضمنيات هي التي يطلق عليها "أ. دوكرو" "الافتراضات الأولية" (Présuppositions).

واعتبرت "ج. ل.ميرسيي" المحكي الروائي هجنة (Hybride) من العلاقات التلفظية ينهض الكتابي بمهمة تنظيمها، ويتعلق الأمر بإجراءات دقيقة تحافظ على الانسجام النصي العام، تتمثل هذه الإجراءات في تداخل الأسلوب المباشر وغير المباشر الحر، الذي يساهم في تشكل الترسيمات الخاصة بقاعدة نقل خطاب الشخصيات، فكل ترسيمة تعيد التلفظ بطريقتها الخاصة، إذ نادرا ما يكون الكلام المباشر الأدبي بريئا، هذا إن لم نقل إنه لا يكون بريئا بالمرة، لأن طبيعة المواضعات الروائية تسمح للسارد بأن يحرك وفق درجات تقريبية شكل مضمرات كلام الشخصيات ومحتواها، حتى تصبح متفقة بصورة جيدة ودقيقة مع مقتضيات الحكائي و الإيديولوجي في العمل[28].

توظف الرواية العناصر الحوارية والسردية والوصفية، وتعمل على تنظيمها وتشغيلها بصورة ملائمة في ثناياها، وذلك دون إلغاء لاستقلاليتها الخاصة؛ التي تهدف" الوصول، عبر بنياتها السردية العميقة، وبنياتها الخطابية السطحية، إلى إبراز مختلف العناصر البنائية التي تساهم في تحديد ديناميتها"[29]، ومن هذا المنطلق لا ترى "ميرسيي" ضرورة القبول بصرامة تلك الثنائيات ضمن خط متعارض بين الكلام/ المحكي، اللفظي/ غير اللفظي، المحاكاة/ الحكاية، بل ينبغي الالتفات إلى زوايا التكامل والتضمين التي تربط فيما بينها.

وبناء على الوضع المفصلي للحوار داخل العمل الروائي[30]، يمكننا تشكيل مجال الخطاب انطلاقا من عناصر سياقية متصلة بالوضعية التلفظية للذوات المتكلمة، أثناء أي تبادل لفظي ثنائي، إن مجال الخطاب يبقى مشروطا بوجود علاقات القوة وعلاقات الموقع التي تمتلكها الذوات المتحاورة في سياق يفرض عليها أن تحدد صورتها إزاء نفسها وإزاء بعضها وإزاء المرجع، وهنا تظهر أدوارها الاجتماعية والحوارية، ومن خلال الصور "التذاوتية" يمكن التعرض لمجال الخطاب الداخل-نصي.

حددت "ميرسيي" هدف دراستها في إرساء أسس شعرية لـ "لكلام الروائي"، وذلك قصد معرفة الخصوصية الوظيفية والبنيوية والمرجعية للخطاب المباشر داخل تحليل سيميولوجي للمحكي السردي الذي يرتبط به.

ويبدو من خلال ملاحقتها لتمفصلات الحوار الروائي بين الواقعي والمتخيل والشفوي والمكتوب أنها استفادت من اهتمامات عديدة على رأسها السرديات والإنجازات السوسيو- نقدية، وسوسيولوجيا الأدب، والأسلوبية، بالإضافة إلى النظريات التداولية وسوسيولسانية التلفظ، " وهكذا، لم يعد الحوار محكوما بمثال المحاكاة، ولم يعد نموذجه الأساسي هو المشهد المسرحي"[31]

إن تتبع المناحي الصيغية في الخطاب الروائي يلزمنا بأن نأخذ بعين الاعتبار شمولية الاشتغال، أي باندماج المكونات الأساسية التي يتشكل منها جسد الرواية. فعمل الصيغ لن يكون كافيا إذا ما توقفنا فقط عند طرائق التشخيص الخطابية وعند المنظورات الممكنة المحمولة في طياتها،

---

[28] - Ibid : 42.

[29] - أحمد اليبوري: دينامية النص الروائي، منشورات إتحاد كتاب المغرب، الطبعة الأولى، الرباط 1993، ص :5.

[30]- اعتبر "م. باختين" الرواية حوارا كبيرا. أنظر "شعرية دستويفسكي".

[31] - دوفور فيليب: فكر اللغة الروائي، ت. هدى مقنص، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2011، ص: 49.

فلابد من التركيز على أدوار الشخصيات الروائية وعلى الوظائف الزمنية وكذا أهمية الأمكنة والفضاءات التي تجري فيها الأحداث السردية، ويمكننا الموقع المفصلي للصيغ من ملاحقة الأوجه العديدة والمختلفة التي ترتبط بالعلاقات بين المكونات النصية والخطابية داخل الرواية؛ لأن الصيغ هي أساسا إمكانات وطرائق وتقنيات تتحكم في انتظام اقتصادية العالم الروائي وتوجيهه، وذلك انطلاقا من التشخيص اللفظي الذي يلعب دورا محوريا في خلق نمذجات خطابية وبالتالي منظورية. وينبغي هنا ألا نغفل عن انحياز الرواية لاستعمال سجلات كلامية شفوية أو مكتوبة تساهم في انفتاح الخطاب الروائي على تفاعلات حقيقية من شأنها أن تمنحه دينامية خاصة، قد تقربه أو تبعده عن الإطار المرجعي أو التخيلي، لأن "علاقة الأدب والفن بالواقع من أهم مسائل علم الجمال، ولذا يبقى ضروريا بادئ ذي بدء إيضاح مدى سلامة أفكار التمثيل في ميدان الاستيعاب المجازي للعالم."[32] .

إذا عدنا لمسألة التشخيص اللفظي سنواجه في إحدى أشكالها تراتبية خطابية تطال بصورة خاصة الخطاب المنقول، وأيضا الخطاب المعروض، محققة تمايزا بين خطاب السارد المشخص وخطابات الشخصيات المشخصة. وتبقى الرواية مجالا خصبا وواسعا لتحيين تلوينات عديدة تخص أشكال حضور خطاب الغير، الذي يعتبر تلفظ ذات أخرى، مستقلا تمام الاستقلال في أصله، إنه يتوفر على بناء كامل، ويقع خارج السياق السردي[33] إننا نصطدم هنا بقضايا تلفظية ترجع لفعل الاستشهاد، الذي ينبني على ملفوظ مكرر وتلفظ مكرر، فليس ثمة ما يؤكد أو يجزم تطابق المعنيين معا، فاحتمال اختلافهما يظل قائما[34] وكثيرا ما يكون تكرار فعل التلفظ في الاستشهاد عاملا محوريا يساهم في إحقاق تعدد صوتي أو تعدد خطابي، أو ما أسماه "م. باختين"" بالحوارية وهي صورة من صور التداخل "التذاوتي"، وهي ليست نتاج اختلاف في الدلالة أو المعنى بين التلفظ الثاني الذي تقوم به ذات متكلمة (السارد) بالنيابة عن ذات أخرى (الشخصية).

ولعل من بين الآليات الصيغية التي أغنت مجال الرواية نزوع خطاب السارد إلى استقصاء خطابات الشخصيات الصامتة والمسكوت عنها التي يشكل الحس وطبقات الوعي الداخلي مرتعها بامتياز. وقد نلمس هنا مظاهر تدل على تباعد صوتي السارد والشخصية أو تدانيهما أو انصهارهما،

وإذا كان الانصهار الصوتي أو التصادي الصوتي مرتبطا بطبيعة المنظورات المتقاربة والمتصالحة نتيجة الاتفاق الحاصل فيما بينها، فإن التباعد الذي يحتمل ضمنيا مسافة سردية ومنظورية بين السارد والشخصيات غالبا ما تكون السخرية هي القوام التي تنهض عليه هذه المسافة.

إن الطرح النظري مهما اتسعت آلياته ومقارباته يبقى قاصرا على احتواء واختراق جل المظاهر الصيغية، التي يحملها جسد الرواية في كثافتها وغناها، فهي نازعة دوما إلى الاتساع، وذلك بابتكار ميكانيزمات نصية وخطابية عديدة خاصة بتشكيل الدلالات، هذا قد يسوق السرد نحو ما يعرف بالإمبراطورية، التي قد تتجاوز حدود الأعراف التي تشكل الهوية، لأنها كما يقول عبد الله إبراهيم:" فضاء سردي مفتوح على التنوعات الخصبة،

---

[32] ـ ميخائيل خرابتشنكو: الإبداع الفني والواقع، ت. شوكت يوسف، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010، ص :264.
[33]- ميخائيل. باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، ت. محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، ط.1. 1986، ص156.
[34] - Antoine Compagnon. : La seconde Main ou le travail de la citation, Ed. Seuil, 1978, P.68.

تأخذ الأفعال فيه سمة المغامرة التي تستبطن فكرة، وربما معتقدا، فحيثما تمتد تخوم الإمبراطورية تمتد أحلام الشخصيات، وطموحاتها، ومجال حركتها."[35].

ـ ثانيا: اشتغال المكون الحواري في "قالت ضحى".

سنعرض في تحليلنا لرواية "قالت ضحى" للحوار باعتباره قواما أساسيا يستأثر بالنص كله، إننا نخال أحيانا ونحن نقرأ هذه الرواية أنها حوار متصل تتعدد مستوياته. وحاولنا في مقاربة خصائصه وجوانبه الفنية والجمالية أن ننطلق من إطار نظري سبق أن ذكرنا بأهم ركائزه. وبما أن التحليل الذي نروم إنجازه يستند على الأطر التي بلورها تحليل الخطاب،

فسوف يكون إجراؤنا مستندا إلى مستويين الأول ماكروخطابي (Macrodiscursif) تشتغل عناصره باعتباره مواضعات ثابتة تتداخل في كل نشاط لساني، وتسمح برصد التلاؤم الذي يترتب عن محاكاة الكلام الروائي لمرجعه الخارج نصي، وهنا لابد أن نشير إلى البنيات الأساسية لهذا المستوى الماكروخطابي، والتي تتحدد في الحوارية والمونولوجية والأفعال الكلامية والافتراضات الأولية اللسانية والمقبولية وعدم المقبولية. ومن خلال التركيز على المكون الحواري سنتوقف عند المستوي الميكروخطابي لنبرز تمظهرات آثار الواقعي التي ساهمت في إقامتها الاكراهات الكتابية. إذ سنهتم بعملية تحصيل تلك العناصر غير اللفظية داخل الحوار، وفي السياق نفسه سنعرض لجملة من الحوادث التي تعتري الكلام الروائي، وفي جانب آخر ضمن المستوى الميكروخطابي سنتتبع ما يمكن أن يلحق الحوار الروائي من انحرافات بنيوية ووظيفية تمس قاعدته التلفظية.

1- اشتغال الحوار داخل البنية الماكروخطابية:

تتميز البنية الماكروخطابية في الرواية باحتوائها على إطارات تلفظية قارة يشكلها أساسا اللساني والإيديولوجي والثقافي والنفسي، يتم انطلاقا منها تسنين (Encodage) وفلك سنن (Décodage) كل ملفوظ من ملفوظات الحوار. وباعتبار التداخل والتداول يلحقان كل الإطارات التلفظية- سمة كل تلفظ معطى- يعملان على إلزام التحاور بالخضوع إلى ضرورة إنجاز الأدوار التحاورية، هذه الأدوار توجه بواسطة ميكانيزم التناوب الذي يعمل على انتظامها وفق ما يمليه منطق الطبيعة التحاورية، ومن ثم يستحيل إقصاء التداخل والتداول من عمليات التبادل اللفظي.

ينبغي أن نلتفت في المستوى الماكروخطابي إلى الثوابت التي تتشكل، وتضمن إقامة سمات مميزة لكل تبادل لفظي، كما أنها تسمح لهذا الأخير بأن يصبح ظاهرا بصورة كافية عند تحقيقه وتحيينه، سواء تعلق الأمر بالشفوي أو المكتوب، ونعثر في السياق ذاته على الافتراضات الأولية التي تمثل ثابتا لسانيا يطرح باعتباره مبدأ بنيويا ضمن التبادلات اللفظية، إنه يحول ما يظهر من مادة النشاط اللساني إلى سلسلة من الإمكانات الحوارية غير المحدودة، إلا أنها محكومة بدورها بواسطة قواعد استعمال متواضع عليها[36]. وتقيم الافتراضات الأولية اللسانية والإيديولوجية، التي يحملها إلينا المجال الخطابي العام للرواية، تناسبا وتلاؤما يفترض أن تقرأ الحوارات من خلاله،

[35] ـ الإمبراطورية، السرد، والتاريخ: عبد الله إبراهيم، مجلة ثقافات، العدد 5، السنة 2012، ص: 148.

[36] - G. L. Mercier : La parole romanesque, Ed Klincksieck, 1989, P.77.

كما أن الافتراضات الأولية تقوم بتطبيع (Naturalisation) الخروقات والانحرافات التحاورية، والعمليات الاندماجية بين المكونات الروائية الثلاث (الحوارية- السردية-الوصفية).

1-1- تنسيب المونولوجي بالحوارية.

يفيد نص "قالت ضحى" بصورة كبير، وفي معظم فقراته من الحوار، ونشير في البدء إلى أن وضع الحوارات في المحكي الروائي يجري في جانبه الشكلي بطريقة تقليدية تعتمد الأفعال الإخبارية: قال، قالت، قلت: إلا أن هناك خصائص أخرى جديدة تتجاوز المعطى الشكلي وتحفل بتعدد دلالي يغني الخطاب الروائي.

إذا تتبعنا حوار السارد مع "ضحى" في الفقرة الثانية من النص (الصفحات:24،25،26،27) سنجد أن السارد المتحاور يجيب عن الأسئلة التي تطرحها عليه "ضحى" بشأن تفكيره في مستقبله من خلال مقارنته بين حماسه وطموحه في الماضي، حين كان طالبا في الجامعة، واقتناعه في الوقت الحاضر بوظيفته في الإدارة،

كما أنه قارن أيضا بين مصيره ومصير صديقه "حاتم"، إلا أن عدم تصديق "ضحى" لهذا الجواب يؤكد رفضها للصورة التي يقدمها السارد عن نفسه.

-"فقلت: سأصارحك بشيء يا ضحى... أنا لا أعرف حقيقة ماذا أريد.

سأصارحك بشيء آخر، أنا لا أرغب في شيء أبدا بحماس حقيقي. لا أعرف متى بدأ ذلك" (ص.25).

أراد السارد أن يجعل من سياق تحاوره مع "ضحى" سياق مصارحة، ويدعم التكرار، على المستوى الخطابي، "قوة العبارة" (La force illocutoire) [37]، وتدخل صورة المصارحة التي أراد السارد إضفاءها على كلامه في مجاله الخطابي، الذي يقدمه عن ذاته، وهو مجال غير متطابق مع مجال الخطاب المرتبط بكلام "ضحى". وذلك لأن صورة المصارحة حول الذات التي يطرحها السارد ترفضها "ضحى" وتقلبها إلى صورة كاذبة. إننا في حوار السارد مع "ضحى" نقف عند كرم تقويمي غير ملائم بالنظر إلى تقويم آخر: "فجأة هتفت ضحى: كذب؟" (ص.25).

يقودنا إذن هذا التغيير والقلب لدى المخاطب إلى استخلاص الملاحظة التالية: يتوازى تراجع "قوة العبارة" مع عدم قبول "ضحى" لسياق المصارحة، وبالتالي للصورة التي يريد أن يعطيها السارد عن نفسه لمخاطبته، نتيجة تصادم مجالين خطابيين أثناء عملية التحاور.

"قلت: لو أني أكذب فلم تظنين أني هكذا؟" (ص.26).

يؤشر سؤال السارد على اتخاذ هذا الأخير لنفس الوضعية التي كانت في السابق لـ "ضحى"، إنها وضعية السؤال التي تلزم المخاطب بتقديم جواب له.

ويتحكم في وضعيتي السؤال/ الجواب قانون خطابي خفي يتجلى هنا في الغاية من طرح السؤال والإجابة التي ينتظرها صاحبه من ورائه، وأيضا هناك الكيفية التي يستقبل بها السؤال، والوضعية التي يشغلها صاحب السؤال، إلى جانب ما يمكن أن تمثله كفاءة "ضحى"، في السياق الذي نتحدث عنه، باعتبارها آلية تعمل بصورة تكاملية في رسم ملامح الجواب، الذي يأتي مغشيا بمقصدية مغايرة لمقصدية السارد.

[37]- تظهر أهمية المؤشرات الدالة على "قوة العبارة" في إجلائها للغموض الذي يمكن أن يلف الغرض الحقيقي للمتكلم.

"قالت وهي تهز رأسها- أظن أنك مثل الثعلب المشهور في القصة، تشتهي العنب وتتعزى بأنه حصرم أظن أنك مثل فاوست، تقرأ الكتب وتتمنى أن تملك الدنيا" (ص.26).

إذا تابعنا استرسال الحوار سوف نعثر في الجواب الذي قدمته "ضحى" هنا على الصورة التي تعطيها هي للسارد عن نفسه، بناء على كفاءتها الثقافية ("إنك مثل الثعلب المشهور في القصة"، "إنك مثل فاوست، تقرأ الكتب...") والإيديولوجية (فما هو ثقافي وظفته للإحالة على المكر والخداع). وهناك إشارة أخرى أساسية تكن في أن الصورة المقدمة هي صورة مبنية على الظن ("أظن)، مما يجعل السياق التداولي للحوار الدائر بين "ضحى" والسارد مفتوحا لدى كل منهما على أمل النفي (ما تنسبه ضحى للسارد) (ما يعرضه السارد عن ذاته) "والإثبات (المقصديات)، ومن ثم كانت الصورة التي أعطتها "ضحى" للسارد عن ذاته مختلفة تماما عن تلك التي رغب السارد في إقناع "ضحى" بها، ويولد اختلاف الصورتين وتضاربهما في المجالين الخطابيين لدى كل منهما طبيعة حوارية خاصة، يتجاذب فيها موضوع التبادل اللفظي بين المتكلم والمخاطب، قطبي: المصارحة/ الكذب، اقتناع/عدم الإقناع، الثقة/ انعدام الثقة.

يستدعي مبدأ التناول المنظم للأدوار الحوارية من المتكلم ومن المخاطب كفاءة لسانية وثقافية وإيديولوجية، لكي ينهض كل منهما بمهمة تسنين كلامه وفك سنن كلام مخاطبه، وعلى هذا الأساس قد يحدث داخل الحوار صراع في التأويلات. ويبدو هذا الصراع أكثر في إقرار السارد بأن "في داخله أشياء" دفع "ضحى" إلى استعمال فعل كلامي أمر ("اعتراف) يؤشر على "قوة العبارة"(ص: 26)، التي تبرز أن الغرض من سلطة الأمر هنا يكمن في توجيه إقرار مخاطبها نحو الاعتراف، وقد حاول السارد من جانبه أن يستغل "قوة العبارة" التي تفيد منها "ضحى"، وذلك بإقراره مرة أخرى أن ما سيقوله لها عن ذاته هو اعتراف. إلا أن دلالة اعترافه ووجهته تتميز باختلافها عن تلك التي تعطيها له "ضحى"، ومن ثم كان اعترافه ينفي ويبعد الصورة التي شكلتها هي عن شخصية السارد.

إن حوارية الحوار لا ينبغي أن نقف فيها عند تلك الاختلافات في المواقع والمقاصد بل عند الأفعال غير اللفظية التي تخص بالأساس جانبها التداولي أيضا، ويمكن أن نؤشر عليه في الحوار المذكور بواسطة العبارة التالية:"نعم في داخلي أشياء ولكني لا أستطيع أن أسميها، يأتي تأكيد السارد في هذه العبارة مطبوعا بصبغة الاعتراف، إلا أن السياق التداولي للحوار يبرز عدم قدرته على تسمية الأشياء التي يطمح إليها بأسمائها، هل ثمة قصور في كفاءة السارد اللسانية تجعله عاجزا عن الإشارة لفظيا وبالأسماء إلى طموحاته. أم أن السارد لا يريد لإقراره ولاعترافه أن يصل إلى حد تعيين طبيعة طموحاته، تبقى إذا الطموحات حاملة ومحتملة لأشياء مجهولة وغير محددة، ولعل ذلك ما يعمق المنحى الحواري في الحوار. ونلاحظ وكأن رد "ضحى" جاء بناء على إدراكها لهذا المعطى التداولي، لأنه اتجه مباشرة نحو تعيين طبيعة الطموح لدى السارد وحصرها في الامتلاك.

ويأخذ الحوار الذي نتوقف عنده في جزئه الأخير شكلا آخر (ص.27)، فبعد طلب "ضحى" للتعاقد مع مخاطبها حول ثقتها به، واستجابته لطلبها، عمدت إلى تغيير موضوع الحوار الذي كان يتوقع المخاطب أنها ستعرضه عليه عن ذاته. وبذلك تكون "ضحى" قد خرقت تعاقدها مع مخاطبها لعدم التزامها بما يقتضيه منها سياق التحاور،

إنها تتراجع وتعلن له عن عدم ثقتها به، ونخلص في هذا الحوار بين السارد و"ضحى" إلى أن حواريته تدعمها توتريه العلاقة بين المتحاورين.

تستوقفنا في نص "قالت ضحى" عدة حوارات ذات طابع حواري عميق، إذ لا نكاد نجد فيها ما يدل على وجود تطابق في وعي المتحاورين، أو ما يؤكد اندغام أصواتهم بعضها في بعض، لحد تتبدى فيه وكأنها صادرة عن صوت سردي واحد. وفي هذا السياق سنعرض لأهمها في النص.

يمكننا أن نلامس في الحوار الذي يجمع بين السارد و"ضحى" و"سيد"(ص.30،31) معطى حواريا أصيلا، ساهمت في تركيزه الأدوار الاجتماعية لكل من "ضحى" و"سيد" والتي أبانت بشكل جلي عن الاختلاف الإيديولوجي بينهما في تصور التغيير الذي طرأ على المجتمع، وذلك على إثر تحول قطاعاته وهياكله من سياسة ليبرالية إلى سياسة اشتراكية.

تظل الحوارية هنا نتاجا لما تؤديه الأدوار الاجتماعية في سياق العلاقات "التذاوتية" الملازمة لكل تبادل لساني، لذلك طفت على سطح الحوار اختلافات إيديولوجية بين "ضحى" و"سيد"، تعكسها أيضا "علاقات الموقع" (Rapport de place) التي تستجلي نظرة كل منهما للآخر وللمجتمع المتغير من حولهما.

ويتبين من خلال الحوار الذي دار بين السارد وضحى" حول موضوع سفر "سيد" إلى اليمن (ص: 36)، أن ثمة سخرية في كلام "ضحى" موجهة تحديدا إلى النظرة المتعاطفة للسارد مع صديقه "سيد"، أعلن فيها خوفه من الوضع الصعب الذي توقع أن يواجهه أبناء "سيد" بعد سفره إلى اليمن. وينطوي التلفظ الساخر على استراتيجية تحاورية تضاعف دلالة الخطاب بناء على جمع وجهي المفارقة، وبذلك تكون "ضحى" قد استهدفت التقليل بواسطة التهكم من قيمة كلام مخاطبها ومن نظرته المتعاطفة والمشفقة على "سيد".

ويكشف تعليق السارد عن اعتباره المنحى الساخر أداة هجومية عليه، قصدت من ورائها "ضحى" توقفه عن الكلام في موضوع سفر "سيد"، إلا أن هناك احتمالا آخر تعتبر فيه السخرية نظرة للآخر والعالم، إنها هنا ترفض وتتهكم من النظرة المشفقة التي قدمها السارد.

ويبقى مرة أخرى السياق التداولي لحوار السارد مع "ضحى" معطى أساسيا لاستكمال الطابع العميق للحوارية، ففي عبارة "ضحى" الساخرة: ("آه، إذن فأنت تعرف الشفقة أيضا") نلمس تلميحها الضمني لعنصر آخر تجنبت ذكره يضاف للشفقة التي نعتت بها السارد، ويبين التعليق الذي وازى به السارد الحوار كيف فهم رد "ضحى" عليه، وكيف تعامل معه على أساس أن مقصديته هجومية تستهدف إيقاف الكلام عن "سيد" بدافع اختلافها معه في حماسه الكبير "لإنجازات الثورة". وهناك توقف عن الكلام من قبل السارد ("فسكت") يحتمل أن يكون القصد من ورائه إما التأكد من أن "ضحى" تسعى فعلا أن تبادر بطرح موضوع آخر بديل عن الموضوع الأول (سفر"سيد" إلى اليمن) في الحوار، وإذا استرسلنا في النظر إلى المؤشرات التداولية سوف نجد "ضحى" تعود لنفس الموضوع،

الذي بدا سابقا أنهت تريد أن تعرض عن الكلام فيه، بل الأكثر من ذلك أن "ضحى" تعتبر الموضوع طبيعيا وتعلل اعتبارها بما فهمته هي من "سيد" نفسه، وبما سمعت عنه.

كما تميز الحوار بملامح "تذاوتية" مفعمة بالسجال والتوتر بين السارد و"ضحى"، تكشف عن صورة السارد بالنسبة لـ "ضحى"، وأيضا صورة هذه الأخيرة بالنسبة للسارد، ضمن السياق ذاته لابد من أن نلتفت إلى تصادم مجالين خطابيين: يتصل الأول باعتراف السارد بحبه لـ "ضحى" وبوحه به، والثاني بعدم اقتناع "ضحى" بكلام السارد عن حبه لها، ومن ثم يكون البوح والإقرار بالحب في المجال الخطابي الأول يقابله ويتصادم معه في المجال الخطابي الثاني تأكيد "ضحى" للصورة التظاهر بالبراءة لغرض عدواني يرضي من خلاله السارد غروره وأنانيته. ويتراءى جليا كيف تتجه "قوة العبارة" عند السارد نحو الإقناع في الوقت الذي تتجه فيه "قوة العبارة" عند "ضحى" نحو الرفض وعدم الاقتناع، وذلك بناء على إعطائها قصدية معاكسة لكلام مخاطبها، وانطلاقا من مجرى السياق التداولي الدلالي نكتشف أن التأكيد الذي تحمله عبارة السارد في بداية الحوار: "فهمت كل شيء"، تستقبله (التأكيد) "ضحى" بنوع من الارتياب، وهو ما جعلها تكرر السؤال حول مسألة فهم السارد لها، وكأنها لازالت لم تقتنع بعد بما يطرحه من تأكيد: "فهل فهمت أنت حقا؟ فهل فهمتني حقا؟"، وفي ظل التعاقد الحواري قدم السارد جوابا تكسوه صبغة احتمالية "ربما" منتقلا في الآن نفسه إلى موضوع آخر يخص بوحه بحبه لـ "ضحى". ويبقى من الضروري أن نستعين في ملامسة السياق التداولي بما ينقله إلينا المكون الوصفي، الذي تخلل الحوار: "كانت الآن تجلس مشدودة" متصلبة" بصوتها الخفيض "الجارح" تضيء الموقع الذي تتكلم منه "ضحى".

ونشير إلى أن استعمال نقاط الحذف ونقاط التعجب في الحوار("ضحكت ضحكة هازئة وقالت يحبني !... ما أسهل الكلمة !..") يدلنا على السياق الحواري الذي ترد فيه "ضحى" بسخرية عن موضوع اعتراف السارد بحبه لها. فثمة توقف يفصل بين أجزاء الكلام (نقاط الحذف) قد نفهم منه الصعوبة التي تواجهها "ضحى" في إخبار السارد عن ذاتها هي.

- ينطبع الحوار الذي جمع السارد و"سيد" و"حاتم" (ص:23،22،21،20) بحوارية عميقة تتجلى في تواجد مجالين خطابيين يحمل كل منهما نظرة مختلفة عن الأخرى حول كيفية القضاء على الفساد من هياكل المجتمع ومؤسساته، فإذا كان "سيد" يؤمن بمطلقية القضاء على الفساد بدءا من قمة الهرم الاجتماعي والإداري، فإن "حاتم" غير مقتنع بصحة هذا الطرح الذي يعتمده "سيد" (لأنني عرفت أن الحية لا تموت أبدا، إننا نحاول عبثا معها لأنها تلتف حول الأرض" (ص.21)، لذلك نلاحظ أن السياق الحواري يلفه نوع من التوتر نتيجة تصادم إيديولوجيتين لدى المتحاورين.

- ونعثر في الحوار (ص.80،81) الذي جمع السارد و"بولا" على أفعال تلفظية إخبارية صادرة عن المتحاورين، يؤكدان من خلالها كفاءتهما الثقافية والإيديولوجية، ولعل هذا ما أعطى للحوار صبغة حوارية موازية لاسترسال تبادل وجهات النظر متعارضة ضمن مسار حواري ينتظمه مبدأ التناوب على الكلام بين السارد و"بولا"، ويبدو أن "قوة العبارة" عند المتحاورين تستمد من كفاءتهما الثقافية والإيديولوجية: يتبين ذلك من خلال الصورة التي أعطتها "بولا" للسارد عن الرجل الشرقي، وحديثها عن التغيرات التي عرفتها مصر مع الثورة الاشتراكية،

فكل من السارد و"بولا" يعمد إلى مادة إخبارية لها طابع ثقافي ("الإنسان الشرقي") والسياسي (الوضع في مصر- قتل وطرد اليهود) إلا أن المقصديات تظل مختلفة، فثمة استغلال للثقافة ضمن أفق إيديولوجي معين لدى كل منهما.

ويمكن انطلاقا من الموضوعات المطروقة في الحوار أن نفصل بين قطبين أساسيين في تحريك المعطى الحواري، يتشكل الأول من كلام "بولا" والثاني من كلام السارد، إذ يتفتق التعارض بينهما بالشكل التالي: أخذ أموال الناس/ توزيع الثروة بالعدل، محاربة إسرائيل/ إسرائيل التي تحارب، كراهية اليهود/ عدم وجود كراهية لليهود لأنهم يهود، وتتوزع هذه الصور "التذاوتية" بين المتكلم والمخاطب وفق مبدأ تناوبي حواري بكيفية متواترة ناتجة عن تصادم إيديولوجي بينهما، لذلك تكون كل صورة ينسبها الأول للثاني مرفوضة من قبل هذا الأخير استنادا إلى إستراتيجية حوارية تعتمد تقديمه لصورة بديلة عن ذاته تكون متعارضة ومتناقضة مع تلك المنسوبة إليه.

تتكلم في التبادل اللفظي بين الشخصيات الروائية داخل نص "قالت ضحى" حوارية عميقة تضفي على العلاقات التداولية منحى توتريا يعكس مدى الاختلاف القائم بين المواقع التي يأخذها المتحاورون إزاء بعضهم البعض، وقد لمسنا سابقا في النص كيف أن حوارية الحوار تستمد قوتها من السياق التداولي للحوار: وذلك لأن "التجاور المكتوب يحافظ على إثارة التداولية بصورة أكثر من الأنماط الأخرى النصية المكتوبة"[38].

ومن ثم كانت الدلالات المتعارضة التي انبثقت عن الكفاءات الثقافية والإيديولوجية تتساوق مع عناصر أخرى تداولية ظل يحملها الحوار لأجل تعميق الحوارية "التذاوتية".

1-1-2- المونولوجية:

إذا كانت حوارية الخطاب الروائي هي نتاج عملية "تذاوتية" تعتمد في أساسها على عدم إقصاء الآخر كطرف فعال في الحوار، وذلك بصفته ليس موضوعا للوعي بل كوعي آخر، إذ إزاء الوعي الآخر يتحدد وعي الذات، فإن المونولوجية تمثل الوجه السلبي والنقيض للحوارية، إنها تقصي هذه "الغيرية" (L'altérité) التي تعد قاعدة جوهرية وضرورية في البنية الحوارية.

ويمكن أن تتجاور أو تتداخل أو تتكامل الحوارية و المونولوجية داخل الخطاب الروائي.

وبما أن المونولوجية ليست هي المونولوج سوف نطرح بعض الخصائص الرئيسية في بنية المونولوج: أولا إن صورة المتكلم الذي يصبح نفسه المخاطب والمتلقي تحدث اضطرابا في المدار التواصلي وأيضا في عملية "التذاوت"، إذ تحدث مواراة الترهينات المتكلمة، ثانيا المونولوج قد لا يتوجه إلى أي أحد، وقد يتحرر من بعض المعينات (Déictique)، ويبدو ذلك واضحا على مستوى الضمائر كأن تنقسم "أنا" إلى أنا/أنت. ثالثا يتميز المونولوج باكتماله على عكس الحوار الذي لا يكتمل ولا تكون له نهاية.

"فكرت جيدا في تلك الأيام أن أطلب نقلي من المكتب الميت. قلت ربما كان ابتعادي عن ضحى وسيلة لنسيان ذلك الحب الميؤوس منه لإنهاء حيرتي أن أظل معها ساعات في مكتب واحد بمفردنا،

[38] - A. K. Varga : Causer Conter, stratégies du dialogue et du roman, in littérature, N°39, Fev, 1994, P.64.

لا أستطيع أن أصارحها ولا أستطيع أن آمل في شيء ولا أن أعترف لأحد بهذا الحب غير المشروع، والذي لا مهرب منه مع ذلك. ولكني أعرف في قرارة نفسي أنني لن أفعل هذا، لن أطلب نقلي لأنني في الليل، كنت أستحدث النهار أن يطلع لكي أراها ولكي أعيش تلك الساعات من الحيرة." (ص.41).

يكشف المونولوج المذكور تحول السارد وتراجعه عن طلب نقله إلى مكتب آخر بعيدا عن "ضحى"، وذلك لاعتبار السارد أن طلب نقله هو أداة تخلصه من حبه غير المشروع" و"الميؤوس منه" لـ "ضحى".

ويظهر جليا كيف تتحكم إمكانيات خطابيتان في سياق المونولوج: الأولى تمثلها الرغبة في طلب النقل، وتتلخص الثانية على العكس من ذلك في عدم القدرة على طلب النقل ("لكنني كنت أعرف في قرارة نفسي أني لن أفعل هذا، لن أطلب نقلي لأني في الليل، كنت أستحدث النهار أن يطلع لكي أراها ولكي أعيش تلك الساعات من الحيرة.")، ويبرز المونولوج الداخلي من خلال الإمكانيتين الخطابيتين اصطدام الرغبة النفسية والعاطفية بسلطة "طابو" اجتماعي، لأن "ضحى" يمنعها زواجها من أن تكون موضوعا لرغبة السارد.

يؤشر فعل "فكر" على الطبيعة الذهنية لما سيحكى، وينهض داخل المونولوج بدور تعويضي عن فعل الاستماع، مادام اضطراب خطابي في المدار التواصلي للمونولوج، ويتضح ذلك أيضا في استعمال السارد لفعل إخباري "قال "الذي يحتمل أن يوجه الكلام بالضرورة إلى طرف آخر مستمع غي العملية الحوارية، ويمكن أن نعتبر صيغة "قلت" في المونولوج محمولة على الصيغة التقليدية "قلت في نفسي".

ويبقى تواجد إمكانيتين خطابيتين داخل مونولوج السارد لا يعبر عن تقاطع في الوعي لديه حول الرغبة وانعدام القدرة على تحقيق هذه الرغبة، لأن السارد اكتفى في المونولوج بجعل ذاته موضوعا لوعيه، ولم ينفتح على وعي آخر[39].

قام السارد في جزء عام من نص "قالت ضحى" بتوجيه نجواه إلى معشوقته (الفقرة.9/8)، وبما أن كل نجوى هي بالضرورة مونولوجا[40]. سنحاول أن نعرض لها على أساس أنها تمثل شكلا آخر من أشكال الكلام المباشر أو بالأحرى لونا من ألوان الحوار الروائي.

يفتتح السارد نجواه في الفقرة الثامنة من النص بسؤال يطرحه على نفسه ويتولى في الآن ذاته الإجابة عنه، ويسمح السؤال/ الجواب بتأدية وظيفة تغيير موضوع النجوى.

-"سألت نفسي ما سر غرام ضحى بالأطلال؟"

-"ولكن كيف كنت أستطيع أن ألهت وراءك من تلك الحياة الهشة الندية إلى جفاف الحجارة والأطلال؟"

-"متى بدأ ذلك؟" ربما بعد شجارنا الأول؟ قبله بقليل؟"

---

[39]-يرى "م. باختين" أن "الفكرة(...) ليست صياغة ذاتية وسيكولوجية فردية مع "مثوى دائم " لها داخل رأس الإنسان، كلا، فالفكرة ذات طابع فردي داخلي، ذاتي داخلي، إن مجال وجودها لا الوعي الفردي، بل العلاقة الحوارية بين مختلف أشكال الوعي، فالفكرة هي بمثابة الحادثة الحية الواقعة في نقطة الالتقاء الحواري بين شكلين أو أكثر من أشكال الوعي، أنظر: شعرية دستويفسكي: الطبعة الأولى، دار توبقال، ص : 125.

[40]- ليس كل مونولوج نجوى أنظر:

- P. Larthomas : Le langage dramatique, sa nature, ses procédés, Ed Armond Colin, Paris, 1972, P : 380.

-"وهل كان ذلك. معبدا لديونيسوس أم أنني أنا الذي أجعله الآن في ذهني معبدا لإله العشق؟".

يتدرج السارد في نجواه من موضوع اهتمام "ضحى" بالأطلال والزهور والأشجار إلى موضوع آخر مغاير يكشف حبه لـ "ضحى" وللإشارة يبدو هذا الموضوع الأخير أكثر تؤما مع ما تقتضيه النجوى، وذلك بتركيزها على إظهار الجوانب النفسية والعاطفية لدى الشخصيات الروائية، وضمن منحى مونولوجي تتحدد الوظيفة الأولى للنجوى الروائية في تمردها على التسلسل الخطابي العادي، نتيجة القيمة "الطابو" لمحتواها الدلالي والإيديولوجي[41]، إن نجوى السارد تخبرنا عن المكتوم والمكبوت لديه فعلاقته بـ "ضحى" يجتمع فيها الحب والخيانة.

إن وضع السارد المتماثل حكائيا يجعل من أسرار نجواه كلاما مباشرا، يختلف عن باقي كلامه المباشر الآخر في المحكي السردي بحكم استحالته إلى مونولوج، فحوارات النجوى ليست سوى حوارات مختلفة من قبل السارد. فلابد من الالتفات في جانب آخر إلى ما يميز مونولوج النجوى على المستوى التلفظي، إننا نجد تضمينا لكلام "ضحى" في كلام السارد، فثمة إذن تراتبية في الترهينات السردية تدلنا عليها المؤشرات الآتية: "كانت تقول" و"كانت ضحى تقول" و"كنت يا ضحى تقولين"، إلا أن استعمال سجل اللغة الشعرية واستحواذها معجميا على مونولوج النجوى ترتب عنه تصادي صوتي السارد و"ضحى"، وذلك بصورة ظهرا فيها وكأنهما صادرين معا عن نفس الصوت، ويستمد التصادي الصوتي قوته من غياب المزدوجتين في عملية تضمين صوت السارد لصوت "ضحي"، وأيضا تقاربهما نتيجة استعمال المعجم الشعري، مما سمح بتذويب كلام "ضحى" المنقول:

استرسال نجوى السارد في الفقرة التاسعة من النص(ص: 62 وأيضا في ص: 69) يبقى محافظا على استئثار اللغة الشعرية، وأيضا إضفاء طابع محمل بالإبعاد الأسطورية على أحداث تجربة الحب التي عاشها السارد مع "ضحى" حين سافرا إلى روما في رحلة دراسية. إننا لا نكاد نعثر في النجوى على ما يميز لغة كل ترهين سردي عن غيره من الترهينات السردية الأخرى. فلغة النجوى واحدة وأحادية يتحدث بها السارد و"ضحى" معا دون تفاوت أو تمايز. وإذا دققنا النظر في الفقرة التاسعة سنجد أن النجوى تأخذ شكل حوار يمثل طرفه الأول السارد والثاني "ضحى"، ولا يخلو حوار النجوى من توتر، لأنه لا يلبث أن يرتاد مناحي مسكونة بصراع قيم أسطورية: فـ "رع" إلاه الخصب و"أوسير" المخلص و"إيزيس" التي تناضل من أجل أن تجمع أشلاء "أوسير" كل هذه الأسماء تحيلنا على الطرف الذي يسعى للخير وإحلال الخصب محل القحط والموت، وهناك طرف آخر يمثله "ست" الذي فتك بـ "أوسير" وأحال الخراب والظلمة محل النور والعدل والحب، وتأتي لغة الشعر وقيم الأسطورة داخل النجوى لتضع حلا لمأزق التجربة الذاتية المحبطة وفشل تجربة الحب، فـ "ضحى" تتحول أسطوريا إلى "إيزيس" أو "إسيت" والسارد إلى "أوسير"، ولا يمكن قراءة حوار النجوى هنا إلا باستحضار التجربة الذاتية المحبطة والمتوترة التي تنقلها إلينا الحوارات الأخرى الخارجة عن دائرة النجوى في الرواية.

1-1-3- الافتراضات الأولية للحوار الروائي:

تتجاوز اللغة الروائية في كثير من الأحيان حدود وظيفتها الإخبارية كي تصبح أداة عبور إلى مناح ضمنية ومفترضة للكلام في بعض السياقات الحوارية،

[41] - G.L. Mercier: La parole Romanesque, Ed. Klinchsieck, 1989, P :230.

وعلى هذا الأساس تنقسم الوحدات الدلالية إلى عناصر معروضة وأخر مفترضة، وللإشارة فالافتراض الأولي "يمر في اللحظة نفسها التي يمر فيها المعروض (le posé)، إنه جزء ينتمي إلى الفعل التلفظي ولا ينفصل عنه بدءا من اللحظة التي يتم فيها تسنينه"[42].

-"بدت عليه الدهشة لأنها نادته باسمه ولكنها شرحت له وهي تشير إلى النافذة كنت أراك دائما من هنا وأسمع النداء عليك.

فضحك وهو يقول: آه، أيام القطاع الخاص.

قالت لم تكن سعيدا بأيام القطاع الخاص؟ قال: ومن يرضى بالذل يا هانم؟

كان اسمي على لسانهم دائما يا ولد يا سيد خذ يا ولد يا سيد، تعال يا ولد يا سيد، هنا أنا سيد الفتاوى لا غير، الأستاذ هنا يقول لي يا سيد وحاتم بك يقول لي يا سيد.

هزت ضحى رأسها وقالت أنت فصيح أيضا." (ص.30).

يحيلنا الجانب الضمني لهذا الحوار على افتراضات تسمح بانفتاح التلفظ على المعطى الحواري، والتي تأخذ في التجلي عند النظر في العلاقة بين سؤال "ضحى" وسؤال "سيد" الذي ورد في بداية جوابه، وذلك على النحو التالي: يولد الافتراض الأولي القائم على رضا "سيد" بالذل افتراضا آخر هو أنه "لم يكن سعيدا بأيام القطاع الخاص"، وهناك افتراض آخر يبدو محتملا لدى "سيد" يفيد بأن أيام القطاع الخاص هي أيام ذل.

وتعمل هذه الافتراضات الأولية جميعها على تقريبنا من موقعي المتحاورين إزاء بعضهما أو إزاء واقعهما. وقد نلمس بجلاء اختلاف الموقع الاجتماعي لكليهما.

وثمة افتراض أولي ساخر نجده في جواب "ضحى"، الذي تنعت فيه "سيد" بالفصاحة، إنه افتراض يقوم على أساس نفي المعروض ("الفصاحة")، مادام أن الخطاب الساخر حامل دوما للمفارقة بين ما نعلنه وما نضمره، لذلك كانت غاية "ضحى" العميقة التي يحملها جوابها تكمن في تهكمها واستهزائها من كلام " سيد". إن الافتراضات التي أشرنا إليها تتوزع بين مجالين خطابيين كل واحد منهما يتشكل وفق الموقع الإيديولوجي لكلا المتحاورين: فإذا كانت "ضحى" لا تبدي أي مساندة أو تعاطف مع عهد الثورة، لأنها جردت زوجها من كل ممتلكاته، فإن "سيد" احتل موقعا اجتماعيا أرقى من الذي كان فيه "أيام القطاع الخاص"، لذلك فهو يساند بحماس إنجازات الثورة، التي اعتمدت سياسة تأميم الهياكل الاقتصادية للمجتمع عوض ليبرالية القطاع الخاص.

إذا ركزنا في الحوار الوارد في الصفحتين (43 - 44) على الرد الذي قدمه السارد للدعوة التي وجهها إليه "حاتم" كي يعمل معه في الاتحاد الاشتراكي، سنخلص إلى أن ملفوظ الرد ينطوي على افتراض أولي يمنح كلام السارد بعدا نقديا يكشف سلبيات العمل السياسي الحزبي، وبناء على معروض الرد نفهم أن العمل السياسي في نظر السارد ليس سوى ممارسة "للخطب والاجتماعات"، في حين يقوم الافتراض هنا على رفضه لممارسة أي عمل داخل الحزب، ويساهم تلفظ السارد في نسج مجال خطابي يتميز برفضه للعمل السياسي الحزبي، وذلك خلافا لمجال خطابي آخر يعلن عنه في الحوار تلفظ "حاتم"، الذي يسعى إلى إقناع السارد بفكرة العمل في الحزب.

[42] - Ibid , P.86.

ويمكن أن نلاحظ كيف يحتمل "حاتم" بدوره افتراضا أوليا يقابل رد السارد يتمثل في تخوف هذا الأخير من أن "تتلوث يده بأشياء لا يريدها"، إلا أن افتراض "حاتم" يأتي مطروحا ضمن استراتيجية تحاورية وإقناعية باعتباره معروضا تحمله ملفوظاته.

تأتي معظم الحوارات الروائية في "قالت ضحى" متلبسة بالضمني، الذي يسمح لنا بتشكيل سياقات حوارية بناء على الافتراضات الأولية، وذلك لأجل استكمال السياقات الحوارية المباشرة والجلية بواسطة اللامقول. فالشخصيات تبقى مدركة للضمني ولمضمرات الكلام أثناء أي تبادل لفظي تذاوتي.

وثمة مناح عديدة في النص تتميز بحضور مؤشر "أقصد"(ص:33)، الذي يلجأ من خلاله المتكلم إلى تحديد مقصديته الضمنية، إذ يخرجها بذلك من حيز الضمني والمفترض إلى المعروض الإخباري الجلي والمعلن عنه. وإذا انطلقنا من السياق التداولي، الذي يجري فيه الحوار، سندرك أن سؤال "سيد" للسارد عن استمرارية بقائه في اللجنة النقابية، كان سببا في إثارة غضب السارد وانفعاله الذي عبر عنه باندفاعه للخروج من الصالة التي يتواجد بها الموظفون، وهذا يكشف عن نيته الضمنية في نفي كل الصلات التي قد تؤكد ارتباطه بعمل "سيد" النقابي، خوفا من مضاعفات انعكاس سلبي لذلك على حياته الوظيفية.

أمام غضب السارد وانفعاله حاول "سيد" أن يوضح غايته من السؤال ("أحاول أن أفهم") الذي وجهه لمحاوره، وبموازاة رفض هذا الأخير للكيفية التي أراد بها "سيد" أن يحقق غايته أمام الموظفين، نلمس خوفه من إشاعة تحريضه لـ "سيد" كي يظل في اللجنة النقابية. وفي سياق التبادل اللفظي "التذاوتي" يعلن "سيد" تصحيحه للقصدية التي منحها السارد لغايته، ويدلنا على فعل التصحيح عبارة: "لم أكن أقصد ذلك" (ص: 75)،

حيث تقر "ضحى" في هذا الجزء من الحوار بتصديقها للسارد، إلا أنها سرعان ما عممت اعترافه لها بخيانة صديقه "حاتم"، ويلف تعميها افتراض أولي يفيد أن "ضحى" هي الأخرى ستشملها خيانة السارد، ويحتمل أن يكون هذا الافتراض الأولي دافعا للسارد كي يطرح سؤاله الذي يطلب فيه من "ضحى" مزيدا من التوضيح لمقصديتها وراء التعميم ("ماذا تقصدين؟").

وبحكم سيادة مبدأ تعاوني حواري توضح "ضحى" مقصديتها، التي تجعل من خيانة السارد خيانة "لأحلامه وأفكاره"، ومن ثم فهو لم يعد نفس الشخص، وهنا نصادف افتراضا ضمنيا آخر، نستشف منه أن "ضحى" لا تثق بالسارد، وعلى هذا الأساس تكون عبارة "ضحى": "كلانا خائن" تحتمل خلفيتين ضمنيتين: الأولى تفيد عدم ثقتها بالسارد، والثانية تؤكد أن "ضحى" ليست هي الأخرى موضع ثقة.

تسمح الافتراضات الأولية في إطار الضمني بالكشف عن الطبيعة العميقة للعلاقات القائمة بين الشخصيات الروائية، وبذلك تساهم الافتراضات في تشكيل الإمكانات الخطابية التي تستند إليها المسارات الخاصة بالشخصيات. وداخل هذه المسارات يمكن استجلاء العلاقات التوافقية أو التعارضية التي تفرزها مجمل المجالات الخطابية المتصلة بكلام الشخصيات. لذا ستساعدنا التفاعلات الحوارية والمونولوجية بما احتوته من اختلاف وتوافق في المقصديات على الإمساك بمادة الإمكانات الخطابية التي بدونها لا معنى للحديث عن مسارات الشخصيات.

4-1-1- مقبولية الحوار:

أهم ما يميز الحوار في نص "قالت ضحى" غناه من حيث الأفعال الكلامية المدرجة فيه، سواء كانت إنجازية أو تعبيرية، إذ تأتي منسوجة في سياقات حوارية مختلفة باختلاف الأوضاع التي تتقلب فيها الشخصيات الروائية، وفيما يعود لهذه الأفعال الكلامية لابد لها أن تستجيب إما لمبدأ المقبولية أو لعدمه.

ويحظى مبدأ المقبولية بأهمية أكبر من المبدأ التعاوني (Principe de coopération) فبالنسبة لـ "سبربير" و"د.ويلسون" هو مسلمة أساسية يقوم عليها التبادل اللفظي[43].

وتسمح المقبولية للمستمع بأن يغني أو يغير معارفه وتصوراته، من خلال استناده إلى قدر معين من التوابع التداولية يترتب عنها على نحو معكوس إثراء الإخبار التي يتوفر عليها. ويتعلق تقويم المقبولية بالمتلقين (Destinataires) حسب المعارف التي يتوفرون عليها سابقا في سياق معطى، فهم الذين يحكمون تقريبا على مقبولية الملفوظ[44]. ويعمل المتكلمون بدورهم على إنتاج ملفوظات بمقبولية أكثر إمكانية.

إن المقبولية تصبح صعبة الإدراك في ملفوظ نجهل توابعه التي تقربنا، بشكل أو بآخر من الوضعية الخاصة بالتبادل اللفظي، ففي الحالة التي يقول فيها المتكلم شيئا يفترض أن يعرفه الكل، تبقى دوما إمكانية تتعلق بحساب تأويلي يجعله مقبولا، وذلك بصورة مستقلة عن ضحالة جانبه الإخباري الظاهر [45].

تكاد تكون كل الحوارات في نص "قالت ضحى" مستجيبة لمبدأ المقبولية، فالتناول على السؤال والجواب بين الذوات المتكلمة في عملية التبادل الحواري يتم ضمن تعاقد تعاوني[46].

يضمن استمرارية الحوار: وذلك على أساس مبدأ الإخبار وطلب الإخبار. وهو ما يدعم سياق المقبولية الحوارية. كيف ذلك؟ سوف نقوم هنا بتتبع حوارات من النص. فإذا عدنا لحوار السارد مع "ضحى" الذي أقر فيه بخيانته لصديقه "حاتم" حين كان طالبا في الجامعة، سنلاحظ أن "ضحى" اعتبرت إقراره وبوحه ذاك مطية لتعميم سلوك الخيانة، وهو ما يعضد الموقع الذي سبق أن تحاورت مع السارد انطلاقا منه مؤكدة فيه عدم ثقتها به وبكل الرجال، (ص: 73 وص: 75).

استمرار الحوار بين السارد و"ضحى" يحمل دليلا على وجود تعاقد تعاوني بناء عليه يدلي السارد أخبار عن حياته النضالية مع صديقه "حاتم" أيام كانا طالبين في الجامعة، فهو إخبار بالتأكيد تضعه "ضحى" في سياقه الزمني والمرجعي الخاص بها، إنها تربطه بما تختزنه من معلومات عن نفس الفترة التي يحدثها عنها السارد، والحال أن مقبولية كلام السارد بدت واضحة فهي تعرف أن كلامه هو مصارحة واعتراف، فهي تصدق خيانته لصديقه "حاتم"، إلا أن هذه المقصدية ظلت عندها مرتبكة بفكرة خيانة الكل أو العالم بعد خيانته الأولى،

---

[43] - D. Mangueneau : Pragmatique pour le discours littéraire, Ed. Bordas, 1990, P.103.

[44] - Ibid, P :104.

[45] - D. Mangueneau : Pragmatique pour le discours littéraire, Ed. Bordas, 1990, P.104.

[46]- يقوم التعاقد التعاوني على مبدأ التعاون (Principe de coopération) الذي يفرض على الذوات المتكلمة أن تواصل التزامها بعدم إيقاف التبادل اللفظي فيما بينها لأجل إقامة نشاط خطابي.

- D. Mangueneau : Pragmatique pour le discours littéraire, Ed. Bordas, 1990, P.102.

يتضح إذن أن "ضحى" أدركت مقصدية ومعنى كلام السارد عن خيانته لصديقه، إلا أنها تؤول هذه المقصدية لما تختزنه هي من تجربتها الذاتية عن سلوك الخيانة الذي ترى أنه يغير الفرد إلى فرد آخر.

وفي حوار آخر دار بين السارد وحاتم هو عبارة عن اعتراف متبادل بالخيانة (الفقرة.18)، يتضح كيف أن إخبار السارد لصديقه عن خيانته لم يكن مرفقا بأي شكل من أشكال التوتر التي يمكن أن تنهي الحوار وتضع حدا استرساله "حاولت أنا أيضا أن أكلمك وأن أصفيها ولكن كان خجل يمنعني. شعور بأنني خنتك بطريقة ما..."(ص.111). ونجد في الحوار أيضا تأكيدا لمقصدية الطرف الآخر "حاتم" التي يعلن عنها الملفوظ التالي:"فجلس وهو يقول معك حق" (ص.111)، إن مقبولية الحوار الدائر بين المتكلمين يعززها ويقويها مبدأ التعاقد التعاوني، فكل من السارد و"حاتم" يساعد الآخر في إلقاء كلامه وحديثه، إذ استمرار لحوار لا يفهم فيه المتحاورون بعضهم البعض.

ويأتي الحوار بين السارد و"سيد" (ص: 108) حاملا لعدة مؤشرات تؤكد حضور مبدأ المقبولية الحوارية، فحديث "سيد" عن الممارسات الفاسدة داخل الإدارة التي يعمل بها تستجيب لطلب ضمني للإخبار من قبل السارد، فالمعرفة التي اكتسبها "سيد" ترجع لاحتكاكه المباشر بذلك الواقع الفاسد، باعتباره نقابيا ومناضلا سياسيا، ويؤهله هذا الموقع ليكون مصدر إخبار بالنسبة للسارد كي يطلعه على مكامن الفساد الإداري والسياسي الذي تشارك فيه "ضحى" إلى جانب "سلطان بك" إلا أن ميزة الحوار الأساسية التي تتجلى في التناوب على الكلمة، تسمح لـ "سيد" بدوره أن يطلب من السارد توضيحا لمعنى يساري، ونلمس بجلاء مقبولية الحوار عندما يعلن السارد عن معنى كلمة يساري معتبرا إياها معادلا لكلمة شيوعي، إذاك سيلجأ "سيد" لربط كلمة يساري بالمعلومات والتوابع التي تختزنها ثقافته، ونفهم من السياق التداولي كيف أن السلطة السياسية العليا ترفض وتضطهد الشيوعيين، كما نستشف من السياق نفسه الخوف والقلق الذي انتاب "سيد" عندما عرف أن يساري تعني في السياق التداولي السياسي شيوعي: ("قال سيد يا نهار إسود. وامتقع وجهه").

أ-"أرجو أن تكتبه أنت بلغة الحكومة." (ص.32).

ب-"فقال أخرجني أنا من الموضوع ثم افعل ما تشاء" (ص.36).

يقربنا المثال (أ) من حالة طلب في صيغة التماس من "سيد" موجه إلى السارد كي يعيد كتابة مذكرة نقابية. في حين يدلنا المثال (ب) على ملفوظ بفعل إنجازي ("أخرجني أنا...")[47]. ينطوي على دلالة ضمنية تتلخص في طلب "حاتم" إبعاده عن موضوع المذكرة النقابية، ويكشف طلب "حاتم" عنصرا نفسيا يتمثل في خوفه من رد فعل جهاز المؤسسة الحكومية العدواني على النشاط النقابي، إلا أن صيغة فعل الأمر في إفعل" لا تكتسي صبغة إلزامية، إنها تعبر عن حالة الالتماس لا غير، ومن ثم قد يعمد أو لا يعمد المخاطب إلى تنفيذه وتحقيقه.

[47]- يتميز تركيب الملفوظ الإنجازي بتشكله من فعل في المضارع وفاعل بضمير المتكلم، ومن زاوية تلفظية فالملفوظ الإنجازي لا يتوقف عند إنجاز نقل الأخبار بل يتجه نحو تنفيذ فعل محدد يقصده المتكلم.
- G.L. Mercier: La parole Romanesque, Ed. Klinchsieck, 1989, P.96.

استرسال الحوارات المبني على المقبولية والتعاقد التعاوني[48] بين الذوات المتكلمة لا يعني أنها خالية من التوتر والتصادم، بل على العكس من ذلك ثمة اختلاف في المقصديات يدركه المتحاورون،

وهو ما يؤكد فعلا ارتكاز الحوار على المقبولية، ويمكن أن نستدل هنا بحوار السارد مع "عبد المجيد" حول "العناصر الهدامة" والتنظيم السريـ وحوار "ضحى" و"سيد" حول التغيير الذي شهده المجتمع.

إن اختلاف المقصديات أعطى دينامية للحوار على مستوى علاقات القوة والموقع لدى المتحاورين داخل سياق يطبعه تغيير الاستراتيجيات المرتبطة بالأفعال الكلامية والكفاءات الثقافية والإيديولوجية، التي يتم تحريكها بهدف إقناع الآخر، وكل ذلك يؤكد تشييد الحوار على مبدأ المقبولية التي تسمح للمخاطب بأن يدخل في إدراكه التوابع التداولية الناقصة في الحوار، إذ يتمكن المخاطب من استكمال النشاط "التذاوتي" بإدراكه للصورة التي يقدمها الآخر عن ذاته وعن العالم.

وإذا تأملنا الكلام المباشر الذي جاء في النص على شكل نجوى، ستتجلى لنا بوضوح مقبوليته لأن السارد يحاور فيه ذاته. ونشير هنا إلى أن هذه المقبولية قائمة على انحراف تلفظي وتواصلي سوف نتوقف عنده لاحقا.

قد يكون من قبيل الخطأ اعتبار البنية الماكروخطابية التي تؤطر الحوار مصدرا وحيدا للواقعية الخطابية التي تستند عليها الرواية، لأن ثمة إجراءات أخرى على المستوى الميكروخطابي هي التي تمنح الافتراضات الأولية والأفعال الكلامية المحمولة في الحوارات شكلها الأجناسي بحيث تصبح منتمية لما هو تخييلي.

2- إركراهات الحوار الروائي المكتوب وآثار الواقعي.

يفترض في جل الحوارات الروائية التي ينقلها لنا السارد في نص "قالت ضحى" أن تكون مطبوعة بسمات شفوية تدلنا على تماثلها وتشاكلها مع الحوارات الواقعية، ولقد لجأ السارد إلى استعمال لغة تبدو مباشرة وتمنح كل شخصية في النص فرصة تتكلم فيها بضمير المتكلم، ولعل ما يعزز هذا الوضع الممنوح للشخصيات حيادية السارد نفسه التي تعلن عنها أفعال إخبارية (أقول-قلت-قالت- تقول-قال-يقول).

إننا نلاحظ في السياق الخاص بلغة الحوارات المنقولة في النص عدم تقيدها بالمزدوجتين باعتبارهما إجراء كتابيا بإمكانه أن يرسم الحدود الفاصلة بين كلام السارد وكلام الشخصيات الأخرى، إن الحوارات لم تكن بلغة دارجة ولا أيضا بلغة فصيحة بالمعنى الدقيق للكلمة، بل كانت بلغة تتوسط بين الدارجة والفصحى، وهذا الموقع يمنحها فعالية ومرونة كي تمسك بالعناصر الجوهرية المحيطة بالأفعال التلفظية المنجزة.

ينبغي إذن أن ننظر إلى الحوارات على أنها حوارات تخضع بالضرورة لوظيفة النقل (Rapportage) التي ينهض بها السارد، كي يحقق عبور اللفظي الواقعي إلى محيط اللفظي المكتوب، إلا أن هذه العملية لا تتم دون أن تترك عناصر اللفظي الواقعي كمؤشرات دالة عليها داخل اللفظي المكتوب، محققة بذلك قدرا معينا من آثار الواقعي،

[48]- يندرج مبدأ المقبولية وأيضا المبدأ التعاوني في منظومة قوانين الخطاب (Les lois discours).
- D. Mangueneau : Pragmatique pour le discours littéraire, Ed. Bordas, 1990, P.P: 101-118.

وفي هذا السياق نشير إلى أن الواقعية الميكروخطابية في الرواية تقوم على نمط آخر مغاير تماما لنمط الماكرونصي الخطابي الذي تتشكل فيه.

ترى "ج. ل.ميرسيي" أن التحقق الميكرو-نصي للوحدات التعبيرية والافتراضية لا يمكن أن يتم دون ترك مجال غير محقق على شكل كفاءات إيديولوجية وثقافية ونفسية غير ظاهرة، أو عناصر تداولية لسانية ناقصة، لذا كيفما كانت صورة هذه الصعوبات المنسوبة إلى قصور لا مفر منه للكتابي،

فإنها تتطلب استحضار ميكانزيمات تعويضية (compensatoires)، تتولى إن ظاهريا أو ضمنيا تسجيل بعضا من كمية الخصائص "النطقية" (Prosodiques)، "الميمو- حركية"والبنيوية والنفسية والثقافية أو غيرها، التي تتطلبها في مقام أول مقروئية الخطاب بصفة عامة أو في مقام ثان مقتضيات أجناسية تهدف إلى خلق أثر من آثار الواقعي[49].

يسير إذن التشخيص الأدبي لما هو لفظي بشكل ثنائي مع عدد محدود من تقنيات كتابية خاصة (طباعية، ترقيمية، خطية) تستدعي للكشف عن بعض عناصر آثار المحاكاة، ومن هذا المنطلق كيفما كانت وسائل إعادة إنتاج العناصر النطقية الخاصة بالحوار، كإقحام معطيات زمنية وفضائية داخل سلسلة الكلام، فالأثر الذي يتشكل ناتج عن تحريك واع للإجراءات أو "المؤشرات التعويضية" الملازمة للكتابي[50]. وتنحصر أهمية هذه الإجراءات والمؤشرات في كونها تعمل على بعض ذلك المحيط النطقي للملفوظات.

ويمكن القول إن ثمة كتابة "مضافة" (Sur écriture) تعود إليها الإجراءات والمؤشرات التعويضية. سنحاول أن نبرز من خلال نماذج عديدة من الملفوظات الحضور القوي والكثيف للمؤشرات الدالة على الميمو- حركي في مختلف الحوارات المنقولة في نص "قالت ضحى"، ويأتي "الميمو-حركي" كإجراء كتابي لفظي كي يحيلنا على ما هو غير لفظي أساسا من حركات وأفعال مرافقة لأداء الفعل التلفظي، كما أنه يكشف عن جانب مهم يخص تداولية التبادل اللفظي الحواري.

يكاد لا يخلو حوار من حوارات نص "قالت ضحى" من إقحام لـ "لميمو - حركي"(ص: 16- 17- 21)، مما أضفى على الكلام الروائي سمة واقعية، إنها تلتقط الحركات والأفعال المصاحبة لأداء الأفعال التلفظية التي تصدر عن المتحاورين، فإذا التفتنا إلى الملفوظات المبرزة التي عرضناها سنجدها حاملة لعناصر أسقطها التبادل اللفظي الحواري، وبما أنها ملازمة للسياق التذاوتي للحوار وذات طابع غير لفظي، كان لابد أن تتجه إكراهات الكتابي إلى تعويضها بإجراء "ميمو - حركي" حتى يبدو الحوار المكتوب متماثلا ومتشاكلا مع الحوار الواقعي.

تخضع الحوارات الروائية على عكس الحوارات المسرحية لإكراهات إضافية وتكميلية، إذ على هذا الأساس تتحدد وظيفة الميموحركي في تحقيق قدر أدنى من المحاكاة،

[49] - G.L. Mercier: La parole Romanesque, P.140.
[50] - Ibid : P.142.

وذلك سواء بإضافة اللفظي أو تكميله في الحوار بتلك العناصر الجوهرية ذات الطبيعة غير اللفظية التي تترك أو تبقى في الظل لعجز اللفظي في الحوار عن تحيينها والاستدلال عليها.

وتبرز أهمية "الميمو ـ حركي" في إظهار طبيعة الأداء النطقي لبعض الكلمات أو الملفوظات في أجوبة الحوار. ويمكن أن نتوقف هنا عند عبارتين:"اختنق صوته" و"قال بلهجة مختلفة"، إنهما يقربان إلينا الصورة النطقية التي يؤدي بها المتحاور كلامهن وفي هذه الحالة يكون أثر الواقعي "صوتيا أسلوبيا" (Phonostystique)،

إن نص: "قالت ضحى" أتى حافلا بمثل هذه الإشارات الصوتية أسلوبية:

-"قلت بهدوء، بلهجة مواسية ورغم ذلك فسوف تستمر يا حاتم." (ص.112).

-"فقال بنفس اللهجة الطبيئة وهو ينظر إلى الورقة لا إلي، وكأنه يفكر في اتخاذ قرار..." (ص.117).

-"فقلت وخرج صوتي خافتا، سمحت لم من قبل أن تدخلي يا ضحى فدمرت حياتي، ولكن تعالي." (ص.125).

نلمس من خلال هذه الأمثلة التي قدمناها كيف يعمل "الميموحركي" إلى جانب الإشارات الصوتية الأسلوبية في تحصيل الأجزاء التي تنقص الحوار كي يتبدى متلائما مع المقروئية الخطابية، فإلى جانب هذه الوظيفة التكميلية والتأثيثية، هناك وظيفة أخرى ميتا ـ حوارية تصف الأداء النطقي للذوات المتحاورة.

حاول السارد بصورة كبيرة وجلية استثمار الخطابات المسندة (Discours-attributif)، التي توازي الحضور الكثيف للأفعال الإخبارية (قالت- يقول-قال)، وينخرط استثمارها ليس فقط في إظهار ما هو غير لساني أو "ميموحركي" أو نفسي أو كفاءات إيديولوجية أو ثقافية، بل في كل ما يتغلق بالظهور (Paraître) (كذب، كلام واهم...) والكينونة (Etre)، وتمثل الخطابات المسندة إشارات هامة تخص درجة حضور السردي، مع تعيينها لطبيعته الذاتية (Subjective) أو الموضوعية (Objective)[51].

وتجدر الإشارة إلى أن استناد نص "قالت ضحى" إلى "الميمو ـ حركي" كإجراء للتعويض يأتي ليلحق اللغة الوسيطة التي بها يكتب النص، ونفس الشيء يمكن قوله عن تلك الإشارات الدالة على الأداء "الصوتي- أسلوبي"، فهي تستثمر لاستكمال ما يصاحب الأفعال التلفظية ضمن لغة النص المكتوبة لا اللغة الشفوية التي تجري بها الحوارات خارج نصية.

إذا كانت لغة الحوارات تتوسط بين العامية والفصحى، فما هي إذن الإجراءات التعويضية الأخرى التي حركها الكتابي لأجل الإمساك بآثار اللغة الشفوية؟

يدفعنا هذا الاستفهام إلى الالتفات نحو الإشارات الطباعية والترقيمية التي تعتبر إكراهات كتابية يتم استعمالها بكيفية موازية مع ميكانزمات أخرى موظفة لتشخيص نشاط الحوار بين الذوات المتكلمة.

[51] - G.L. Mercier: La parole Romanesque, P.238.

إن الإشتغال الوظيفي والبنيوي الذي تنهض به الميكانيزمات الطباعية والترقيمية لا يقل أهمية عن ميكانزمات أخرى سبق أن عرضنا لها ماكروخطابيا في نص "قالت ضحى"، لذلك فهي وإن كانت تبدو بسيطة بالنظر إلى موقعها السطحي في النص، تبقى نسبيا حاملة لبعض آثار الواقعي.

وبناء على معاينة الحوارات المكتوبة في نص "قالت ضحى" يمكن أن نلاحظ خضوعها لآليات الترقيم: من نقاط وفواصل، وعوارض، ونقاط الاستفهام والتعجب، ونقاط الحذف.

-" ولمن أنت تزوجت لأنك أحببت، أليس كذلك؟

استعملت علامات الترقيم في سائر حوارات نص "قالت ضحى"،

وبإمكاننا أن نلاحظ من خلال جوابي الحوار الذي جمع السارد و"ضحى" كيف تنظم النقاط والفواصل ونقاط الاستفهام وغيرها أطراف الحوار كاشفة عن تلك التغييرات النطقية العامة التي تعمل على تقوية الجانب الدلالي، ومن ثمة "قوة العبارة" التي تستند إليها الأفعال الكلامية، إن إشارات الترقيم تحاول ضبط الأداء اللفظي لدى المتحاور، وفي هذا السياق كيفما كان الإجراء التعويضي للتحصيل سنجده مستندا إلى قانون تحاوري واقعي[52].

يستوقفنا في نص "قالت ضحى" ذلك التواتر الكبير لنقاط الاستفهام، وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا الإجراء الكتابي يرتبط بمنطق خطابي خاضع لمبدأ تناوبي منظم للحوار. وندرك في عدة حوارات كيف تتناوب الشخصيات الروائية المتحاورة على موقعي السؤال/ الجواب الموازية لعملية الإخبار وطلبه، إذ يدلنا مبدأ التناوب على تعاقد حواري مبني على أساس التساوي (Parité). فالسارد يتوجه بالسؤال لـ "ضحى"، وتتولى هذه الأخيرة الإجابة عنه، كما تتوجه إليه هي كذلك بالسؤال ويجيب هو عنه.

تتعدى نقاط الاستفهام حدود اعتبارها مجرد إشارات بسيطة ترقيمية، وذلك لأنها تعين أفعالا كلامية ضمن مقصدية طلب الإخبار أو التماس القيام بفعل من الأفعال في سياق التبادل اللفظي الحواري.

-"قلت بغضب هل تعرف عني يا حاتم أني من أهل الوساطة؟ ووساطة النساء بالذات؟

فقال يا سيدي هذه كانت نكتة. دائما أعصابك تالفة؟ ثم مد يده فصافحني وهو يقول على العموم سأحاول من أجل سيد. أما أنت فربما يطول انتظارك." (ص.21).

لقد أتى العنصر "الصوتي- أسلوبي" هنا ("قلت بغضب") كاشفا للأداء النطقي لسؤال السارد وكذلك نفسيته، وفي الآن ذاته نجد السؤال يسبق إلى تشكيل سلم للإجابة المناسبة ضمنيا عليه، لذا نفى جواب "حاتم فكرة الوساطة التي اعتقد السارد نسبتها إليه. ويبدو أن صيغة السؤال لها مقصدية محددة ضمن استراتيجية تلفظية تحمل المخاطب على القيام بفعل ما يؤكد تلك المقصدية.

تلعب الإشارات الدالة على السؤال في الحوار المكتوب دورا أساسيا في استكمال الصور "التذاوتية" المحمولة في المجال الخطابي، إذ بدون هذه الإشارات سيظل جانب من الأفعال التلفظية غير واضح، إنها تجلي الغموض الذي يمكن أن يطال عملية العبور من اللفظي الشفوي إلى اللفظي المكتوب.

سوف ننتقل إلى إشارات طباعية وترقيمية أخرى لها تلك الوظيفة التعويضية في الحوار الروائي:

[52] -Ibid ; P : 156.

-"فهمت كل شيء، أعتذر لأني ذكرتك بهذه الأشياء.

- وهل نستها في أي وقت؟ وهل فهمت أنت حقا؟ هل فهمتي حقا؟

- ربما لا أكون قد فهمتك حقا ولكني أعرف أني أحبك." (ص.60)

كتبت هذه الأجزاء من حوار السارد مع "ضحى" مسبوقة بعارضة، ويتوازى استعمال العارضة مع غياب الأفعال الإخبارية والإجراءات الكتابية الخاصة ب "الميموحركي" أو "الصوتي- أسلوبي"، مما يدفع إلى احتمال اعتبارها تؤدي وظيفة الإمساك بالجانب التلقائي والعفوي في سياق التبادل اللفظي الحواري.

-"ولكن فجأة لمعت دموع في عيني حاتم فتقدم مني وجذبني إليه ثم عانقني بقوة وابتعد قليلا وهو يمسك بذراعي ويقول ألا تعرفني؟..

أنا حاتم.. أنا صديقك.

فقلت أنا وكان صوتي مرتعشا قليلا أرجوك أن تجلس يا حاتم.. نحن.. نحن لم نتعود على الكلام بهذه الطريقة.." (ص.111).

تعتبر نقاط الحذف آلية من آليات الترقيم والطباعة يوظفها الكتابي كي يستعيض بها عن عناصر أصيلة تميز الكلام الشفوي، وتحيلنا نقاط الحذف في هذا الجزء من حوار السارد مع "حاتم" على لحظات الصمت التي كانت تخترق بين الحين والآخر مسار حوارهما: وثمة حضور كبير لنقاط الحذف في رواية "قالت ضحى"، إلا أنها اتجهت في أغلبها إلى التأشير على الصمت والوقفات الفارغة داخل الحوار.

إن الإجراءات التعويضية التي يحركها الكتابي لا تقوم فقط بتأمين الاستقرار التعبيري للتلفظ الروائي داخل النص، بل تحاكي تقريبا التلفظ الواقعي في سيره المنسجم وإيقاعه ومظهره "الصوتي- أسلوبي".وفي سياق التعويض الكتابي لاستكمال النقص. وتضاف إلى الميكانزمات المذكورة تقنية تركيبية أخرى تتعلق بالتكرار الذي لا يمكن مصادرة وظائفه في الإحالة على ظاهرة تركيبية يعرفها اللفظي الشفوي. وتهدف إجراءات التعويض بواسطة التكرار إلى إحداث نوع من الإعداد الشفوي داخل اللفظي المكتوب على حد جد أدنى، وذلك حتى يتلاءم مع ضرورات المقروئية التي تقوم على أنظمة مغلقة ومكررة يترتب عنها أثر محدود للواقع.

إن انتساب علامات الترقيم والطباعة إلى مواضعات الكتابي، لا يكفي لكي تكون وحدها القائمة بدور تسجيل الإيحاءات الدالة على المحاكاة التعبيرية أو "الصوتية أسلوبية" داخل الحوار، بل هناك مستويات أخرى صوتية وتركيبية ودلالية متصلة بالمعطى اللساني تؤدي بشكل أوسع وظيفة المحاكاة، وفي هذا السياق يسعفنا التداول اللساني في الاقتراب أكثر من العدوى الشفوية التي تلحق الحوار المكتوب.

فإذا توقفنا عند حوارات "سيد" في النص السردي سنلاحظ أنها تحفل بألفاظ وتراكيب هي أقرب إلى اللغة العامية، تعمل كإجراءات لتحصيل الشفوي.

-"فقال قلت لك سيد القناوي يا هانم." (ص.30).

تتكرر كلمة "هانم" في كلام "سيد" الموجه إلى "ضحى"، وهي كلمة ذات استعمال واسع في اللغة العامية المصرية، كما نجد كلمات أخرى كـ "يابك" (ص.17،32) التي تدلنا حمولتها خارج النصية على تراتبية اجتماعية،

وتحيلنا داخل الحوار على اختلاف موقعي المتحاورين "سيد" و"حاتم" اجتماعيا وإداريا، وصيغة فعل "جاءنا" ("نعم، نعم، منا موحد القطرين. جاءنا في امتحان الإعدادية" (ص.47)، التي خضعت لاستعمال عامي، ويمكن أن نلمس من خلال الأمثلة التي نسوقها حضور كلمات مدرجة في التركيب تنتسب للغة العامية(ص: 17- 47- 85- 107- 119).

تبقى الكلمات والتراكيب التي عرضنا لها محدودة الانتشار بالنظر إلى حجم هيمنة الحوار في سائر فقرات نص "قالت ضحى"،

إلا أن أهمية اشتغالها لا تقل فعالية عن الإجراءات الأخرى التي تهدف إلى تحقيق إيهام واقعي للمكون الحواري، لذا ينبغي أن ننظر إلى الكلمات والتراكيب المستمدة من اللغة العامية في سياق نصي يحرك فيه الكتابي إجراءات تعويضية لتحصيل عناصر ومقومات تعود إلى الشفهي.

وتتجه إكراهات الكتابي في جانب آخر من نص "قالت ضحى"إلى إصلاح وضعيات حوارية تثيرها حوادث كلام يترتب عنها اضطراب سياق التخاطب، واختلال مبدأ التناول الذي يتحكم في استرسال الحوار، ونشير إلى أن حوادث الكلام (Accidents de parole) الروائي، يمكن تلخيصها في ثلاث:1- كأن تأتي مقاطع الحوار غير متسلسلة، أو أن يطغى على الحوار احتكار الكلام من قبل أحد المتحاورين، أو يحدث انقطاع في إحدى أجوبته، وهذه كلها حوادث تؤكد عدم التقيد بمبدأ التناوب. 2- النمط الثاني من الحوادث يقوم على تعطيل المنطق الحواري3- يتصل المبدأ الثالث بمبدأ التناوب.

سنحاول انطلاقا من حوارات نص "قالت ضحى" رصد ظواهر حوادث الكلام:

أ-"فقال وهو يضحك لهم نقيب يا أستاذ. لا أستطيع المنادي أن ينتقل من مكانة إلا بإذنه والمعلم يقول ليس هذا نصيبك في الحلو والمر.

قاطعه سيد وقال وهو يقطب جبينه أي حلو يا عم مصطفى؟ " (ص.17).

ب-"فقال سيد وماذا أقول للناس الذين انتخبوني في اللجنة يا أستاذ؟

أقول انتظروا حتى يثبتوني وبعدها سأصبح رجلا؟ في بلدنا مثل يقول... قاطعه حاتم وهو يرفع يديه معا" (ص.32).

ج-"قلت معذرة ولكن ألا ترين أن الجمهور هنا مهذب جدا وما يشاهده... فقاطعني باولا قائلة بشيء من الاعتزاز هذا هو أرقى ملهى ليلي في روما" (ص.77).

د-"قاطعني وهو يقول أعرف كل شيء" (ص.120).

تدلنا الملفوظات التي ركزنا عليها في هذه الأمثلة من الحوار الروائي على وجود حادث يتعلق بانقطاع كلام أحد المتحاورين أو قطعه إما لتدخل الطرف الآخر الذي يحاوره أو طرف متتبع لحوارهما، ويبدو أن الشخصيات التي يقطع كلامها في الحوار هي شخصيات تسعى إما بشكل جلي أو ضمني إلى تأكيد صورة عن ذاتها أو عن الآخر أو عن العالم المحيط بهما، برفضها الطرف الآخر الذي يتدخل لقطع كلامها: فـ "سيد" يرفض الصورة التي قدمها "مصطفى" عن علاقته بـ "المعلم"،

كأن يظل خاضعا وراضيا بما هو فيه، ويندرج كلام "سيد" من قبل "حاتم" ضمن سياق تحاوري تختلف فيه المقصديات، فانخراط "سيد" في العمل النقابي وحماسه الجاد في تأديته لم يكن مقبولا لدى "حاتم" الذي اعتبره تهورا ومخاطرة.

يحمل المثال الأخير المذكور شكلا مغايرا ضمن عملية قطع الكلام- إنه لا يؤشر على رفض ما تعرضه الذات المتكلمة (السارد)، بل على عدم رغبة "حاتم" في الاستماع لأنه يعرف مبدئيا الأخبار التي سيعرضها عليه السارد.

يأخذ قطع الكلام في الحوار أوجها عديدة تتساوق مع طبيعة الأفعال الكلامية وحمولاتها الضمينة أو الصريحة في سياق تذاوتي حواري، هذا وإن كان غالبا ما يستهدف فعل القطع إقصاء كلام الآخر أو التقليل من قيمته، وذلك بحسب علاقات القوة والموقع التي يتوفر عليهما كل طرف في الحوار.

إن المتتبع لنص "قالت ضحى" سوف يعثر على حضور قوي لعمليات قطع الكلام لأن جل الحوارات يدعمها تعاقد حواري (Pacte dialogal) يضمن استمرار الحوار ويستجيب لطبيعة تبادل اللفظي والإخباري الذي يحركه منطق السؤال/ الجواب. فثمة إذن سيادة مبدإ تعاوني بين الشخصيات المتحاورة. وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة قطع الكلام برغم انتشارها المحدود جدا في النص يعلن عنها بمؤشرات تعويضية صريحة ليس داخل الحوار بل بواسطة إجراءات كتابية. إنها تتجاور مع المؤشرات "الميموحركية" أو "الصوتية أسلوبية" ("فقاطعه سيد وقال وهو يقطب جبينه"، فقاطعه حاتم وهو يرفع يديه معا") التي تسبق أو تعقب الحوار.

تتميز الحوارات الروائية في النص بتواجد الوقفات الدالة على لحظات الصمت التي تفصل أجزاء الكلام، وقد أظهرنا سابقا كيف يندرج اعتماد نقاط الحذف في الحوار ضمن إجراءات الترقيم والطباعة التي يسخرها التعويض الكتابي للإمساك بما هو جوهري في الكلام الشفوي، إن الوقفات تحيلنا على الصمت الخطابي بالإضافة إلى أنها ترسم بعض ملامح الأداء "الصوتي أسلوبي"، ومن ثم ينبغي أن لا نخلط الأدوار والوظائف التي تؤديها الوقفات بأدوار ووظائف أخرى تؤديها انقطاعات الكلام، وذلك لأن هذه الأخيرة تعد من الحوادث التي تلحق الكلام في الحوار، وتقتضي تدخل الإجراءات التعويضية للكتابي حتى تصبح منسجمة نصيا مع "برنامج" واقعية الرواية.

سنحاول في سياق تعرضنا لحوادث الكلام أن نتوقف عند ظاهرة بارزة مست عدة حوارات في نص "قالت ضحى"، تتعلق بتعطيل منطق الحوار(ص: 25).

قصدنا من خلال الاستشهاد بهذا المقطع إظهار كيف تم تعطيل منطق الحوار بتعليق مبدإ التناوب: فالسؤال الذي وجهته "ضحى" للسارد حول مستقبلهن استغله لكي يبقى محتفظا بالكلام عن حياته الماضية والحاضرة مقارنا وضعه بوضع صديقه "حاتم"، فثمة تعاقد حواري بين ضحى والسارد يلزمها بالاستماع لما يحكيه لها في جوابه.

-"لم أعرف سبب انفعالها لكنها كانت الآن تتكلم بصوت خفيض لا يعكس أي شعور، قالت سأحكي لك عن أقرب إنسان أعرفه، عن زوجي" (ص.26).

نعثر في هذا المقطع على عبارة "قالت سأحكي لك" التي تحدد بصورة صريحة وضعية ضحى في الحوار كشخصية تحكي للسارد عن زوجها وعن علاقتها به. إلا أن حكيها يعمل على تعطيل منطق الحوار: فالسارد عليه أن ينصت إليها حتى النهاية ملتزما بتعاقده الحواري، مما يسفر عن تعليق مبدأ التناوب على الكلام بينهما.

وفي السياق نفسه يمكن أن نضع حوار السارد مع "سيد" ("قالت إنني كنت أعيش من خيرهم، ولكنني سأحكي لك حكاية" (ص.34،35)، وحواران للسارد مع "ضحى" (ص.38،39)، وحوار السارد مع "حاتم" (ص.112)، وحوار آخر جمع السارد ب "سيد" (ص.59-60)،

يحكي فيه هذا الأخير عن الفساد الإداري (ص.113)، وتأتي مجمل هذه الحوارات مستندة إلى مبدأ التعاقد الحواري، الذي يسمح للشخصية التي تحكي بأن تحافظ على دورها في الكلام إلى نهاية "قصتها" دون أن تتدخل الشخصية الأخرى المستمعة فتقطع كلام الأولى.

وتبقى في النهاية حالتي قطع الكلام وتعليق مبدأ التناوب في الحوار من الظواهر التي يكثر تواجدها في المحادثات اليومية الشفوية، لذا تعين في جانب الاكراهات توجيه الاشتغال الكتابي نحو تعويض الحوار المكتوب بتلك العناصر الجوهرية التي تميز أساسا اللفظي الشفوي، وتخضع إجراءات التعويض لمقتضيات المقروئية كي تحقق الإيهام الواقعي.

3- علاقات الحواري والسردي والوصفي: تطبيع الانحرافات البنيوية والوظيفية.

نؤكد في البدء على أن أي فهم أو إدراك للكلام الروائي لا يمكنه أن يتم خارج مقاربة إجمالية تكون قادرة على تعرية العلاقات التكاملية القائمة بين الحواري والسردي والوصفي، لذلك سنحاول هنا أن نعالج مقاطع من الحوارات في فضاء وزمن نصيين، مما يسمح لنا بتلمس جملة من العلاقات الكرنولوجية بين القصة والخطاب، فكل حدث أو وضعية حكائية تصبح قابلة لكي تحدث توسيعا أو تكثيفا زمنيا داخل الحوار، لذا فوظيفة الزمن في الحوار سواء مست النظام أو الاستغراق أو التواتر نستطيع من خلالها تحديد المناحي التي يشترك فيها الحواري والسردي والوصفي[53].

وكل هذا يقتضي أن نبقى في مستوى محايد من تنظيم البنيات في رواية "قالت ضحى"، وتؤدي بنا الخطوات المذكورة إلى الوقوف على هيكل الميكرو نصي وعلى المميزات الدقيقة التي تعتري اللفظي الروائي.

وتكمن الوظيفة الأولى لحوار النجوى في تمردها على تسلسل الخطابي العادي في رواية "قالت ضحى"، نظرا لما يحتويه دلاليا وإيديولوجيا مجالها الخطابي، وقد سبق أن أشرنا إلى الصورة "الطابو" التي ميزتها: إذ كانت تجربة الحب التي ربطت السارد و"ضحى" تمثل حالة انتهاك صريح لمواضعة اجتماعية بالخيانة.

تكتسي المناجاة طابعا غير تواصلي لأن السارد يكلم فيها نفسه[54]. محاولا فرض تحكمه في إدارة عادية للأخبار تستجيب لمجاله الخطابي الشخصي، إلا أن هناك جانبا آخر لا يمكن تجاوزه ينحصر في التصاق المناجاة بمدار تلفظي أعلى يتجه من النص إلى القارئ.

ترتبط المناجاة بما تطرحه علينا مسألة إقحام الكلام المباشر داخل الرواية، هذا بالإضافة إلى أنها تنتمي للسنن الشفوي سواء على مستوى المؤشرات الطباعية الموظفة فيها قصد التعويض، أو اشتغال المعينات (الضمائر- الزمن- المكان) التي توجهها البنية الكبرى للحوار،

[53]- تعتبر هذه المكونات الثلاثة صيغا أساسية تعمل على تحقيق الانتظام النصي.
[54]- ويحتمل أن يتوجه بكلامه مع نفسه إلى متلقي ضمني.

وفي السياق نفسه تتميز الوحدات اللفظية للمناجاة عن الشبكات السطحية الخاصة بالحوارات (التناوب-التسلسل الثنائي) لأنها تبدو من الوهلة الأولى منحرفة بالنظر إلى المدار التواصلي داخل-النصي.

إذا توقفنا عند نجوى السارد في الفقرة الثامنة من نص "قالت ضحى" سوف نلاحظ انحرافها الجلي عن المدار التواصلي العادي باستعمال السارد لصيغة الاستفهام الذاتي ("سألت نفسي")، ونلمس من خلال الجواب الذاتي أيضا رغبته في تحريك الإخبار ضمن مجاله الخطابي الخاص، مستندا إلى كفاءته الثقافية:. "أفهم أن يهوى الإنسان الأثر، أن يعيش الماضي ويحييه في داخله بقراءة النقوش والأحجار، أفهم حين يزور الإنسان مدينة لم يرها من قبل أن يهتم برؤية آثارها القديمة كما يهتم بمعالمها الحديثة" (ص.62).

لم يطن مجمل النجوى في الفقرة الثامنة مؤسطرا أو خاضعا لاستعمال سجل اللغة الشعرية، وتنسحب هذه الملاحظة على مقطع في بداية النجوى ومقطع آخر في وسطها (ص.63)، مما يؤكد سعي السارد إلى استغلال بداية نجواه كعنصر يساهم في تطبيعها، وذلك بواسطة مقارنته بين الدوافع العامة التي احتمل وجودها، وراء أي اهتمام بالآثار القديمة واهتمام ضحى الخاص بها ("ولكن عشق ضحى للآثار كان شيئا آخر"). ونصادف عنصرا آخر تطبيعيا يكمن فيما يؤديه التماثل الحكائي للسارد من إمكانات تجعل منه شخصية مشاركة في الأحداث، ومساهمة في تذويتها، على الأقل حين تكون له سلطة الكلام، وينبغي أن تنتبه إلى الأخبار الحكائية المقدمة في بداية النجوى والتي اكتفى فيها السارد بالكلام عن زياراته مع "ضحى" للآثار القديمة، وعن ولعها بالأشجار والزهور، ويبقى هذا الإخبار الحكائي إطارا لإقامة تشاكل دلالي مع ما سيحيكه السارد في نجواه الشعرية والمؤسطرة، التي سيلجأ فيها إلى الاستشهاد بكلام "ضحى" عن الزهور والأشجار والمعابد القديمة.

نعثر في مناجاة الفقرة الثامنة على استشهادات عديدة مباشرة ينسبها السارد إلى "ضحى"، في حين يبقى هو المسؤول عنها، فثمة إذن انحراف تلفظي يأخذ ملامح بارزة من خلال عملية الأسطرة التي تطبع الأخبار المحكية، وأيضا ما يسمح به استعمال سجل اللغة الشعرية القائم على تكثيف الدلالة الرمزية المحيطة بالموضوعات التي انشغلت بها "ضحى": كالأشجار والزهور والمعابد القديمة، ويحتمل أن تكون هذه الموضوعات مدار حوارات جمعت السارد و"ضحى"، لكن ليس بنفس اللغة الشعرية وبنفس الحمولة الأسطورية (ص: 62).

يواكب الانحراف التلفظي انحراف وظيفي فالاستشهادات الواردة في الفقرة الثامنة تحيل على تجربة ماضية على ذاكرة لفظية ("كانت تقول"، "كانت ضحى تقول"، كنت يا ضحى تقولين")، وتؤشر الأفعال الممهدة للاستشهادات على سياق لفظي سابق، يتم التذكير به ضمن عملية تعيد نسج سياق جديد للاستشهادات داخل نجوى السارد، وينتمي هذا الإجراء إلى التطبيع المواكب للانحرافات التلفظية والوظيفية.

يتجنب السارد، حين ينسب كلامه إلى "ضحى"، بناء على ما تيسره له وظيفة النقل (Fonction de rapportage) التي ينهض بها، إقامة روابط مبهمة مع الاستشهادات كي لا تظهر هذه الأخيرة ككلام معزول فاقد لسياقه وتسلسله الخطابي، لذا نلمس الجهد التطبيقي الذي ينجزه السارد من خلال العلاقات العديدة التي يفتحها بين المناجاة والحوارات السابقة في النص، فبالنسبة للحوارات التي وردت في الفقرة السادسة نجد فيها ما يؤكد أن "ضحى" والسارد كانا يرافقان بعضهما لزيارة الآثار القديمة في روما ما مشاهدتهما لحدائقها وساحاتها.

تستثمر المناجاة معطيات سابقة في النص، وبعبارة أخرى يمكن القول أن السارد يعتمد في إجراء تطبيعه لنجواه على النص ذاته. فنجوى السارد الدافقة بخطاب الحب تستمد انسجامها النصي، والضامن لمقروئيتها، من حوارات سابقة عن نجواه: ففي الفقرة الثالثة يبوح السارد بحبه لـ "ضحى" (أنا أحبها فقط" ص.37)، وفي الفقرة السادسة نجد بوحا بالحب متبادلا بين السارد و"ضحى" أثناء تواجدهما في روما (ص: 55- 60- 61).

4- الحوار: مسارات الشخصيات الروائية في "قالت ضحى".

يأخذ اشتغال الحوار أشكالا عديدة ومختلفة داخل النص الروائي، وذلك انطلاقا من اعتباره صيغة أساسية لإقحام الكلام المباشر في الرواية، تحضر إلى جانب صيغ أخرى تعكس طرائق تشخيص الكلام الروائي عامة،

ويفتح الحوار مجالات واسعة تغني التخييل الروائي من خلال محمولات مجالاته الخطابية التي تتشكل ضمن سياقات تحاورية و"تذاوتية" مختلفة، خاضعة لتحكمية علاقات القوة والموقع لدى المتحاورين، ويثري الحوار المرجعية التخييلية الداخل- نصية بإمكانية فتحها على مرجعيات خارج- نصية، وهو ما يقوي نزوع الرواية نحو إحقاق واقعية خطابية.

ينهض الحوار بأدوار مهمة في بناء مسارات خاصة بالشخصيات الروائية، تسعفنا في رسم صورة تعكس تطور الشخصية أو جمودها داخل استرسال تخييلي نصي. وتمكننا المسارات من ملامسة جوانب تتقارب فيها وتلتقي عندها الشخصيات أو تتباعد، ونشير إلى أنها تستمد من مجمل الحوارات المنقولة في النص الروائي، أي ضمن رؤية شمولية قائمة على تكاملية سائر الحوارات التخييلية النصية واندماجها.

يبقى استخلاص المسارات مرتبطا برصد "الإمكانات الخطابية" التي تقوم إما على القدرة أو الواجب أو المعرفة أو الرغبة في الفعل، وقد يحدث أن تطوع إيديولوجية الرواية مسارات الشخصيات كي تتوافق معها وتعبر عنها. ومن هذا المنطلق سوف نتوقف في البداية عند مسار الترهين السارد باعتباره شخصية كان لها دور رئيسي ومركزي في "قالت ضحى"، وهو ما مكنها من الدخول في علاقات لفظية حوارية مع الشخصيات الأخرى.

سوف نعمد قبل أن نعلن عن طبيعة مسار شخصية السارد إلى استجماع عدة حلقات متفرقة عبر حوارات عدة في النص دارت بين السارد وشخصيات أخرى:

- **الحلقة الأولى**: جاءت حوارات السارد مع"ضحى" في الفقرات الأولى من النص يعتريها توتر لازم العملية "التذاوتية"، إذ كان السارد يحاول أن يقنع "ضحى" بالصورة التي يقدمها هو عن ذاته، وذلك بنفي الصورة الأخرى التي تعرضها هي له عن ذاته. وقد شمل التبادل اللفظي "التذاوتي" في جانب آخر اعتراف السارد بحبه لـ "ضحى" واعترافه لها أيضا بخيانته لصديقه "حاتم" أيام كان طالبا في الجامعة.

- **الحلقة الثانية**: تحقق رغبة السارد في أن يعش تجربة حب مع "ضحى"، بدأت في روما وسرعان ما ستعرف تلاشيها ليعود السارد مرة أخرى إلى موقع انفصاله عن موضوع رغبته.

- **الحلقة الثالثة:** يمكننا أن نصوغ بشنها ملاحظتين اثنتين: الأولى تتلخص في رفض السارد مزاولة العمل السياسي والحزبي الذي كان يعرضه عليه كل من "سيد" و"حاتم". والثانية، اقتناع السارد بفكرة القضاء على "رأس الحية"، أي على الفساد الذي كان يواجهه بشكل مباشر "سيد" نظرا لانخراط هذا الأخير في العمل السياسي والنقابي.

- **الحلقة الرابعة**: إخبار السارد لــ "ضحى" بما أفشاه له "سيد" عن مراقبة الشرطة لمنزلها، يحدث هذا الإفشاء مفارقة في مسار شخصية السارد نستطيع إبراز وجهيها كالتالي:1- رفض السارد للعمل السياسي والحزبي كان يواكبه عمل آخر يكمن في توجيهه لشخصية النقابي "سيد"، وهنا يندرج كلامه عن الظلم و"مرض العدل". إننا نلمس بجلاء مشاركة السارد لــ "سيد" في هم القضاء على الفساد الذي يمثله بشكل خاص "سلطان بك" و"ضحى" 2- حب السارد لــ "ضحى" دفعه إلى إخبارها بمراقبة الشرطة لمنزلها، وذلك خوفا عليها، وهو ما يساير مبدأ الرغبة قبل الواجب.

يتميز مسار شخصية السارد، بناء على هذه الحلقات المذكورة، بانفتاحه على مسارات شخصيات أخرى، لذلك يبقى بإمكاننا رصد التوافقات والتعارضات القائمة بينه وبينها،

وفي هذا السياق نجد السارد يتوافق مع شخصية "سيد" في اعتقاده بالمبادئ التي ينطلق منها في عمله النقابي والحزبي. في حين يتعارض معه برفضه الانخراط الفعلي في العمل السياسي والحزبي، وهو نفس التعارض الذي يطال انفتاح مسار السارد على مسار "حاتم"، يضاف إليه تعارض آخر حول موضوع القضاء على "رأس الحية"، أي على الفساد. إلا أننا نلامس توافقا بين السارد و"سيد". إنهما يؤمنان بالقضاء على الفساد، أي "بموت الحية"، على عكس "حاتم" الذي اعتقد أن "الحية لا تموت"، وأن الفساد لا أمل في القضاء عليه ("قال حاتم لماذا الآن؟... لأنني عرفت أن الحية لا تموت أبدا. إننا نحاول عبثا معها لأنها تلتف حول الأرض" (ص.121).

إذا تابعنا خط التعارض ضمن مسار شخصية السارد، سوف يستوقفنا تعارضه الواضح مع مسارين آخرين متوافقين لكل من "عبد المجيد"، و"سميرة" إنهما يلمحان بشكل ضمني في حوراهما مع السارد إلى أن العلاقة التي تربطه بــ "سيد" هي علاقة مع "عناصر هدامة" نظرا لما يقوم به "سيد" من نشاط نقابي وسياسي، ويأخذ التعارض هنا طبيعة سياسية، يبدو فيها اختلاف المقصديات واضحا. كما أن علاقة القوة والموقع تتقوى لصالح "عبد المجيد" الذي استغل منصبه الإداري الجديد لــ "وكيل وزارة"، وأيضا علاقة المصاهرة التي تجمعه بالسارد لأجل الضغط على هذا الأخير، كي يبتعد عن "سيد" مستمدا مبرراته من خوفه على مستقبله السياسي:

"أما في البيت فكان يقول بنبرة شاكية أنني أعرضه للخطر بسبب علاقتي بسيد القناوي، وأنني أهدد مستقبله السياسي لأن الكل يعلم أنه نسيبي"(ص.116).

يقتضي استكمال مسار شخصية السارد الالتفات إلى جملة من الحوارات التي ينقلها إلينا مونولوج النجوى، فمن خلال توظيف اللغة الشعرية والأسماء الأسطورية تصير النجوى كلاما نمطيا (Parole type) يساهم في انفتاح مسار السارد على مجال محفوف بالدلالات الشعرية والرمزية الأسطورية، وهنا يتعين علينا التأكيد مرة أخرى على طبيعة النجوى ذاتها التي تقوم أساسا على انحراف تواصلي وتلفظي، وذلك لأن السارد يلعب دور الباحث والمتلقي في الآن نفسه، مما يفرض على الاشتغال النصي أن يستمد انسجامه التواصلي من مستوى آخر ثان يربط النص بالقارئ.

إن حوارات السارد مع "ضحى" داخل النجوى حتى وإن كانت حوارات مختلفة من قبل الترهين السارد، فقد ساهمت بشكل أدنى في تطبيع النجوى ذاتها، إلا أن هذا التطبيع لابد من النظر إليه في تمفصله المزدوج: 1- تبدو النجوى منبنية على بعض الأحداث التي سبق أن مدتنا بها حوارات سابقة في النص بين السارد و"ضحى" تدور حول تجربة الحب التي عاشاها معا أثناء تواجدهما في روما،

وما كان يوازيها من زيارتهما للمعابد والآثار القديمة والحدائق والساحات ونشير هنا إلى أن حوارات النجوى قد أعطت لتلك الأحداث سياقات جديدة بدت مغايرة في كثير من جوانبها للسياقات الأولى، ومرد ذلك إلى توظيف اللغة الشعرية والأسماء الأسطورية.2-ويمكن أن نلاحظ أن إجراء التطبيع النصي المشار إليه في الجانب الأول قد يكون كافيا خاصة عندما تصبح حوارات النجوى محملة بالإيحاءات الشعرية والدلالات الرمزية للأسماء الأسطورية الموظفة، كـ "إيزيس" و"أوسير" و"رع" و"ست" و"أفروديت" و"أيزيس" و"أوزيريس".

لذلك كان التطبيع في الجانب الثاني يستجيب لإكراهات الجنس الروائي ذاته التي لا تنهض على أساس التكرار أو إعادة إنتاج نفس الدلالات الأسطورية المحيطة بالأسماء، بل تعمد إلى تحويلها. واستثمارها روائيا كي تصبح متلائمة مع الأفق الإيديولوجي العام للرواية.

نستطيع أن نلمس اختلاف تجربة الحب، التي تحملها إلينا حوارات النجوى عن التجربة المحبطة التي عاشها السارد مع "ضحى" في روما، وقد سبق أن أشرنا إلى أن في النجوى يسهل إظهار وإبراز العناصر النفسية التي تتعلق بالحياة الداخلية للشخصيات الروائية، لذلك كانت دعوة الحب التي يوجهها السارد لـ"ضحى" في النجوى تلقى ردها الإيجابي والمباشر، وتأخذ النجوى من هذا المنطلق صبغة تعويضية إلى جانب قيمتها "الطابو" التي يقترن فيها الحب بالخيانة. ونخلص عند إمساكنا بإيحاءات التراكيب الشعرية والدلالات الرمزية للأسماء الأسطورية إلى أن تجربة الحب في النجوى تظل وفية لقيمة الإخصاب والامتلاء التي يدلنا عليها اتصال العاشقين وتوحدهما: "لكن أوسير مد لي يده فمددت له يدي والتقت في ذلك السديم جزيرتانا معا وتعانقنا بالحب صرنا واحدا" ومن ثم فإن تجربة حب السارد أغشتها الروائية بحمولات التخييل الشعري، كي تجاوز بكثافتها واقع التجربة ذاته، نحو الكلي والشامل، فالصوغ المونولوجي بعمقه الشعري والأسطوري هو الكشف الذي ينأى بالتجربة الذاتية عن فداحة تبعات التجربة المعيشة وعواقبها، وإذا أمعنا في تفكيك الصورة الأسطورية فلن نتردد في الجزم باتساع عناقيد المتخيل، الذي" يلتحق سحريا، بالزمان الكبير، الزمان المقدس"[55]،حيث تتقارب موجودات الكون وتلتحم في صورة تترجم تفاصيلها علاقة العابد والمعبود، التي لا يصير فيها الحب مسافة أو نأيا لوجود مقاوم، لأن ذات السارد تظل ممحوة في الآخر، مادامت غير عاطلة الكينونة كما يقول ج بول سارتر، ومن ثم فهي لا تحفظ قيامها بذاتها، أو لها القدرة على صيانته[56]، فلا يمكن قراءة حوار النجوى في رواية "قالت ضحى" دون استحضار التجربة الذاتية المحبطة والمتوترة، التي تنقلها إلينا الحوارات الأخرى الخارجة عن دائرة النجوى في الرواية. (ص.61).

وبموازاة هذا الاتصال والتوحد تعود الآلهة إلى العالم الأرضي لتبعث فيه روح الخصب: "وعندما رأى أوسير البشر يهيمنون سائمة على الأرض أخذني من يدي ونزلنا إليهم. علمهم أوسير كيف يبنون بيوتا يأوون إليها وألهمتهم أنا كيف يشقون الأرض اليباب فتخصب" (ص.69)، ويبقى الحب والخصب مستمرين في الحاضر والمستقبل بالرغم من فتك "ست" بـ "أوسير" وتهديده بتكسير دورة الحياة،

[55]- ميرسيا إيلياد: الأساطير والأحلام والأسرار، ت. حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص: 22.
[56]- جان بول سارتر: التخيل، ترجمة لطفي خير الله، 2001، ص: 4.

وإحلال الخراب والظلمة مكان الخصب والنور: "كانت الشمس تغيب وباح لي بسر ما كان وما سوف يكون: وقال لي سيشق الرعد بطن السماء لكي يهطل المطر وستتفتت البذرة كي تنبت الزهرة" (ص.76).

ويتميز آخر حوار في النص دار بين السارد و"ضحى"، باستشرافه للمستقبل برؤية إيجابية تأمل إصلاح الفساد واستعادة عالم القيم (الحب، العدل) (ص:127).

وتشكل الرؤية التي أشرنا إليها أفقا لابد أن نربطه بما تستهدفه إيديولوجية الرواية عامة في تعريتها الجوانب الفاسدة التي طفحت في المجتمع المصري في الستينات بعد تأميم قطاعاته الاقتصادية وإلغاء سياسة الاقتصاد الليبرالي، ونعود لنؤكد هنا أن مسار السارد في انفتاحه على مسارات شخصيات أخرى قد ساهم في إبراز مكامن الفساد، كما أنه تميز باحتوائه لرؤية تؤمن بفكرة القضاء على هذا الفساد.

وإذا انتقلنا إلى شخصية "ضحى" سنلاحظ أن في مسارها عدة تغيرات وتحولات تعكس اتصالها وانفصالها عن مسارات الشخصيات الأخرى: فقد تميزت حوارات "ضحى" مع السارد في بداية النص برفضها للكلام الذي يبوح فيه بحبه لها، مقللة من قيمته بناء على موقع اقتناعها بأن الصورة التي يقدمها عن ذاته ليست سوى صورة كاذبة، إلا أنها سرعان ما غيرت هذا الموقع المعارض والمنفصل عن مسار السارد بموقع متصل ومتوافق، إذ ستبادله البوح مقرة بحبها له، ونستدل من خلال تجربة الحب التي عاشها السارد مع "ضحى" في روما على توافقهما واتصال مساريهما، إلا أن فشل التجربة، الذي يعود لعدم رغبة "ضحى" الاستمرار فيها، ترتب عنه تغيير مسارها في اتجاه انفصاله وتعارضه مع مسار السارد.

يتبين لنا في جانب آخر أن تواطؤ "ضحى" مع "سلطان بك" في رشاو وفساد بعد عودتها من روما، قد أحدث توافقا واتصالا بين مساريهما[57]، لذلك سنلاحظ أن هوة التعارض والانفصال تزداد بين مساريهما ومسار النقابي "سيد"، الذي أتى حواره مع "ضحى" في بداية النص مؤكدا اختلال مواقعهما الاجتماعية والإيديولوجية حول التغيير الذي عرفه المجتمع في سياسته وهياكله كما أن حوارات "سيد" مع السارد ومع "حاتم" كانت تسير في اتجاه التعارض والانفصال مع مساري "سلطان بك" و"ضحى"، إلا أن ثمة ما يضفي على هذا التعارض والانفصال صيغة مفارقة وملتبسة، خاصة عندما ننظر إلى الفترة التي كان فيها "حاتم" متورطا في لعب القمار بمنزل "ضحى"، وهناك أيضا إخبار السارد لـ "ضحى" بشأن مراقبة الشرطة لمنزلها. ويمكن القول أن هذا الاختلال في موقعي السارد و"حاتم" يرجع إلى تغليب صوت الرغبة على الواجب عندهما، وسيتم تخطي الاختلال بالقدرة على معارضتهما ومواجهتهما "سلطان بك" و"ضحى"، ضمن توافق أخر يجمعهما بـ "سيد"، ومن جهة أخرى لا يلغي توافق السارد و"حاتم" تعارض مساريها حول مسألة القضاء على الفساد.

يبدو جليا أن تحديد ملامح مسار شخصية من الشخصيات الروائية لا يمكن أن يتم دون ملامسة علاقاته الاتصالية التوافقية أو الانفصالية التعارضية مع مسارات شخصيات أخرى، وذلك في سياق نصي تحكمه علاقة القوة والموقع التي يمتلكها المتحاورون، وهو ما يفضي بهم إلى احتلال مواقع مختلفة إزاء بعضهم البعض،

[57]- يندرج في نفس السياق التوافقي والاتصالي مسارا "عبد المجيد" و"سميرة".

تعكس طبيعة إيديولوجياتهم وثقافتهم، وينبغي ألا ننفي هنا وضع العلاقات القائمة بين المسارات التي تخدم إن بتوافق أو بتعارض واقعية النص الخطابية.

تقودنا مسارات الشخصيات الروائية إلى ملامسة مستويات أساسية تتشكل من خلالها تدريجيا عقدة النص، التي يمكن اختزالها في نقطة تلاقي مجمل المسارات حول مسألة القضاء على الفساد، وتأخذ العقدة في الانفراج بظهور تحقيق إداري يكشف أساليب الفساد التي كان وراءها "سلطان بك" و"ضحى" و"عبد المجيد"، إن عقدة النص تبنى انطلاقا من مسارات يدعمها تخييل نصي قائم على مشاكلة الواقع.

5- خلاصـات:

تكشف صيغة الحوار في نص "ضحى" عن مناح تتعارض وتتوافق فيها المجلات الخطابية، وذلك ضمن عمليات "تذاوتية" ملازمة للتبادل اللفظي بين الشخصيات المتحاورة.

وقد لاحظنا في هذا السياق كيف تولدت عن تعارض المجالات الخطابية حوارية عميقة أظهرت إلى جانب الاختلاف من مقصديات الشخصيات الروائية اختلافا آخر في علاقات القوة والموقع لديها. ولامسنا أيضا التوافق في مجال الخطاب داخل النجوى، والذي اكتسى صبغة مونولوجية، ونقصد بالنجوى بشكل خاص تلك الحوارات التي اختلقها السارد على لسانه ولسان "ضحى"، فبث فيها شجنه وشجنها الحميمين، واستدعى فيها قيما أسطورية، مستعملا سجل لغة شعرية. وتبدو حوارات النجوى وكأنها صادرة عن صوت سردي واحد، فنحن لا نشعر بتغيير في لغة النجوى ذاتها سواء كان مصدرها السارد أو "ضحى"، ومن ثم انطبعت حوارات النجوى بتصادي صوتي يظهر بجلاء في تقارب صور خطاب الحب وتجاوبها، وذلك بالنظر إلى القيم الأسطورية المحيطة بـ مركباتها الرمزية "إيزيس" و"إيسيت" و"أوسير"، حيث تتم الإحالة من خلالها على الخصب والعدل والحب. ولعل في تراكب هذا الجانب الأسطوري والشعري مع دلالات الحوارات الأخرى البعيدة عن محيط النجوى يستوقفنا التوتر والصراع بين المقصديات المتباينة خاصة بعد فشل تجربة الحب التي جمعت السادر ب"ضحى"، وهذا الفشل مرده إلى سياق متأزم وآخذ في الانهيار يشوبه الفساد الاجتماعي والسياسي، لهذا منحت حوارات النجوى للوضع المأزوم في واقع الرواية إن ذاتيا أو موضوعيا حلولا وهمية وطوباوية وسحرية.

لقد ساهم الحوار الروائي في خلق إطارات تلفظية مفعمة بالتداخل والتداول، والتي استوقفتنا منها علاقات "تذاوتية" تميزت بالتعارض والتوافق في مساراتها، كما ارتبطت المقبولية التداولية للحوار داخل "قالت ضحى" بمنطق السؤال/الجواب الذي هيمن على جل الحوارات الجارية بين شخصيات الرواية، وتعززت مقبولية الحوار في النص باستنادها إلى قانون خطابي تمثل في المبدأ التعاوني أو التعاقد الحواري. وأضفت مقبولية الحوار استرسالا في مجرى الحوارات، وهذا أغنى سياق التبادل اللفظي على المستوى التداولي، كاشفا عن قصديات متباينة حول القيم المتبادلة في واقع الرواية، وقد اعتبرنا حوارات النجوى ملمحا غير التواصلي؛ لأن السارد فيها يكلم نفسه، فهي انحراف تلفظي يقوم على تكسير المدار التواصلي، ومن ثم كان لازما أن يستدعي السنن الكتابي جملة من الإجراءات التعويضية لتطبيعه و"تصحيحه"، حتى يبدو على الأقل منسجما ومتلائما مع مقتضيات المقروئية التي تتحكم في

واقعيته الخطابية. وكانت النجوى الروائية متراكبة دلاليا مع المكونات الروائية الأخرى، بالرغم من تدثرها بطابع أسطوري وشعري، وهذا فرض على المتخيل الروائي أن يؤلف بين عناصر متباعدة ومتنافرة على مستوى الرؤية مستخلصا من داخل التراكب نفسه دلالات عمقت صورة الأطروحة الروائية وكشفت مدى اتساع مفارقتها.

ـ توصيات ومقترحات:

ـ ربط النظرية بالتطبيق في الأعمال النقدية، والدفع بالمعارف والمعالم نحو التداول قصد الوقوف على نجاعتها أو قصورها.

ـ بناء قراءات نقدية منسجمة للأعمال الأدبية عامة والسردية خاصة، التي تبقى من أكثر النصوص مخاتلة.

ـ تجاوز مدار القراءة الأحادية الضيقة وإعمال القراءة المتعددة المرجعيات والمعارف في سياق يعي تكاملها.

ـ المراجع العربية.

* رواية "قالت ضحى": بهاء طاهر، دار الهلال، 1985.

ـ فيليب دوفور: فكر اللغة الروائي، ترجمة هدى مقنص، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2011.

ـ خرابتشنكو ميخائيل: الإبداع الفني والواقع الإنساني، ترجمة شوكت يوسف، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010.

ـ باختين ميخائيل: الماركسية وفلسفة اللغة، ت. محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1986.

ـ باختين ميخائيل : شعرية دستويفسكي: الطبعة الأولى، دار توبقال،

ـ إيلياد ميرسيا: الأساطير والأحلام والأسرار، ت. حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص: 22.

ـ سارتر جان بول: التخيل، ترجمة لطفي خير الله، 2001، ص: 4.

ـ اليبوري أحمد: دينامية النص الروائي، منشورات إتحاد كتاب المغرب، الطبعة الأولى، الرباط 1993.

ـ المراجع الأجنبية.

1- Antoine Compagnon. : La seconde Main ou le travail de la citation, Ed. Seuil, 1978 .

2 - A.M. Alaoui : Narratologie, Ed. Okad, 1989 .

3 - C.K. Orecchioni.: Enonciation de la subjective dans le langage, Ed. Armond Colin, 1980.

4 - C.K. Orecchioni.: L'implicite, Ed. Armond Colin, 1986.

5 - D. Cohn : La transparence Intérieure, Ed. Seuil, 1981.

6 - D. Mangueneau.: Approche de l'énonciation en linguistique française, Ed. Hachette, 1981 .

7 - D. Mangueneau : Pragmatique pour le discours littéraire, Ed. Bordas, 1990 .

8 - E .Benveniste: Problème de linguistique général, Ed. Gallimard, TI, 1966, et T2, 1974 .

9 - H. Weinrich : Le temps, Ed. Seuil, 1973.

10 - G. Genette: Figures III, Discours du récit, Ed. 1972.

11 - G.L. Mercier: La parole Romanesque, Ed. Klinchsieck, 1989 .

12- J. Lentvelt: Essais de Typologie narrative, Ed. José Corti, 1981.

13 - M.C. BAL: Narratologie, Ed Hespublichers, 1984.

14 - P. Larthomas : Le langage dramatique, sa nature, ses procédés, Ed Armond Colin, Paris, 1972 .

ـ المجلات:

- A. K. Varga : Causer Conter, stratégies du dialogue et du roman, in littérature, N°39, Fev, 1994.

ـ الإمبراطورية، السرد، والتاريخ: عبد الله إبراهيم، مجلة ثقافات، العدد 5، السنة 2012.